جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

المنحى البلاغي لشرح العسقلاني على صحيح البخاري

إعداد الطالبة
أحلام عبدالوهاب الجعافرة

إشراف
الأستاذ الدكتور إبراهيم البعول

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه
في الدراسات الأدبية - قسم اللغة العربية

جامعة مؤتة، 2011م

إلى العلامة صاحب الشرح العظيم الذي ملأ ذكره الآفاق ابن حجر العسقلاني

إلى من ربياني صغيرا ، وعطفا علي كبيرا وأمرني ا ببرهما ....والدي

إلى من غرس في حب العلم ودفعني إلى المثابرة والاجتهاد ....أساتذتي

أحلام الجعافرة

الشكر والتقدير

أتوجه بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذ الدكتور إبراهيم البعول، على اهتمامه ورعايته لهذا الجهد العلمي، فقد كان لي مرشدا حكيما، وناصحا أمينا، وأبا حليما، وبالغ شكري وتقديري إلى اللجنة الكريمة على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة، وعلى ما سيقدمونه من ملاحظات تثري هذا العمل

أحلام الجعافرة

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة

الملخص

المنحى البلاغي لفتح الباري

أحلام عبد الوهاب الجعافرة

جامعة مؤتة، 2011م

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بجهد العسقلاني البلاغي من خلال شرحه المعروف بـ (فتح الباري شرح صحيح البخاري), ولتحقيق ذلك جعلت الدراسة في ثلاثة فصول، وتمهيد وخاتمه, اشتمل التمهيد على التعريف بحياة العسقلاني، ومنزلته البلاغية, وخصصت الفصل الأول للحديث فكان طروحات علم المعاني, فتوقفت لدى الحذف والذكر, والإيجاز والإطناب، والفصل والوصل, والقصر، والالتفات. وجاء الفصل الثاني للحديث حول طروحات علم البيان, وجاءت في خمسة مظاهر هي: التشبيه, والمجاز المرسل, والاستعارة والكناية, والتعريض, أما الفصل الثالث فكانت لعلم البديع وتناولت فيه: المقابلة، والجناس، والسجع ،وغيرها.

Abstract

Rhetorical Orientation to Fateh AL-Bari

Ahlam Abdulwahaab Al-Jaafreh

Mu'tah University, 2011

This research aims to define Al-Askalani rhetorical efforts through his explanation knowing with [Fateh Al-Bari Sharh Saheh Al-Bokari]. To achieve this point, the researcher has divided this study into three Chapters with introduction and conclusion.

The introduction includes Al-Askalani life and his rhetorical position. In the First Chapter, the study talks about Semitics and attention has been given to ellipsis [missing words] mention [full words], shortness, elaboration, disconnection, connection, cliticization, pronouns' alteration, [concern].

In the Second Chapter, the study presents rhetoric in five forms: simile and metaphor, synecdoche, metonymy and imagery. While in Chapter Three, the study deals with figurative language: synonymy, alliteration, rhythm, rhyme and other.

المقدمة

الحمد والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد :

يمثل جهد العسقلاني البلاغي في شرحه "فتح الباري شرح صحيح البخاري " التفاتة لماحة ، حيث وقف في تأويله للحديث النبوي الشريف عند الضروب البلاغية المختلفة ،وحاول دق جرس الانتباه إلى أن إثارة الجوانب الفقهية غير كافية، للوقوف على الإعجاز في كلام من أُوتى جوامع الكلم،بل لابد من الاتكاء على وسائل أخرى للاتصال ،ورفع درجة الإعجاز النبوي .

وانطلاقا من مبدأ المعايير البلاغية مدخل مهم لظهور الإعجاز النبوي، هدفت هذه الدراسة إلى استجلاء جهد العسقلاني البلاغي، واعتمدت لدراسة على شـرحه

المنشور من قبل دار الكتب العلمية، وعلى الترقيم الداخلي للأجزاء، مغفلةً المقدمـة من الترتيب ومدى فاعليته في تحقيق إبلاغية الحديث النبوي، ولعل تعـدد محـاور اهتمام العسقلاني العلمي ،هو ما جعله محط اهتمام لهذه الدراسة دون غيـره مـن الشروح .

وإيمانا بمقولة أجدادنا العرب :"مالا يدرك كله ،لا يترك جله "حاولـت هـذه الدراسة الوقوف عند أبرز المعايير البلاغية المتجسدة في الشرح ،فجاءت في تمهيد ،وثلاثة فصول، وخاتمة فصلت بها أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة ،ومن ثم ختمتها بقائمة المصادر والمراجع التي أفدت منها

في التمهيد : حاولت رسم خارطة ثقافية للبيئة التي ترعرع بها العـسقلاني، وذلك لبيان العوامل المؤثرة في تكوينه الثقافي ،في مراحله الأولى ،ثم توقفت لـدى مسيرته العلمية، وإنتاجه الثقافي الضخم، وأبرزت القيمة العلمية لشرحه "فتح الباري "تحديدا ثم عـّرجت على منزلته البلاغية ، واجتهدت في وضعه ضـمن أصـحاب الاتجاه الأدبي للمدارس البلاغية، من خلال جملة مـن المعـايير المـستجلبة مـن النصوص التطبيقية للشرح ، ثم كانت الوقفة الأخيرة في التمهيد لإبراز القيمة العلمية للقضايا البلاغية للشرح .

أما الفصل الأول، فقد عرضت فيه لأغلب معايير علم المعاني التي أعتمـد عليها في الشرح، فتوقفت عند الحذف والـذكر، الإيجـاز والإطنـاب، والفـصل والوصل، والقصر، والالتفات

ثم خصصت الفصل الثاني لعلم البيان، وقد توزع جهد الـدارس فيـه علـى خمسة اتجاهات هي : التشبيه ، والمجاز بفرعيه : المجاز المرسـل، والاسـتعارة، والكناية، والتعريض، وقد أخذ الفصل الثاني من هذه الدراسة مساحه واسعة؛ وذلـك لضخامة اهتمام العسقلاني بالضروب البيانية تحديدا، والجداول الاحصائيه المرفقـة في نهاية الاطروحه تثبت ذلك

وكان الفصل الثالث لضروب علم البديع، وتوقفت فيه عند خمـسة ضـروب هي :المقابلة ،والجناس ،والسجع ،والمبالغة، والتورية .

ولم اقتصر خلال هذا البحث على رصد أفكار العسقلاني البلاغية بل كنـت كثيرا ما أناقش هذه الأفكار مسترشدا بآراء البلاغيين الآخرين ،ومصنفاتهم ،وخاصة الزمخشري في كشافه ،وعبد القاهر الجرجاني من خلال كتابيه:دلائـل الإعجـاز، وأسرار البلاغة، ومفتاح العلوم للسكاكي ،والإيضاح للقزويني، وآراء الشراح مـن مثل الكرماني، والعيني ،ولمسات الدراسات الحديثة من مثل :الصورة الفنيـة فـي الحديث النبوي لأحمد ياسوف، والمجازات النبوية للشريف الرضي،والقرآن إعجازه وبلاغته لعبد القادر حسين، والمباحث البيانية في تفـسير الفخـر الـرازي لأحمـد هنداوي وقد أحدث من منهجيته العامة في دراستي لعلم البيان وغيرها كثيـر تجـد الإشارة إليه عبر صفحات الاطروحه.

وكان من ابرز العقبات التي واجهت هذه الدراسة ،صعوبة تأويل الأحاديـث النبوية ؛لخطورتها، إذ اعتاد الدارس على تأويل النصوص الشعرية، ووضع رؤيته الشخصية في التأويل ،بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مـع وجهـة نظـر المبدع، أما وقد انتقل الوضع إلى عملية عكسية تقوم على أساس "إن هو إلا وحـي يوحى "وأصبح وضع الرؤية الشخصية هنا محال ،تجلت عندئذ الوقفات الطويلة التي استغرقت من الباحث الجهد والوقت الكبير.

وبعد فقد كان هدفي من هذا كله محاولة الاهتداء إلى البيان والصواب قـدر الجهد والطاقة ،ويعلم ا أنني بذلت في هذه الدراسة ما استطعت من جهد ،فان يكن التوفيق قد حالفني فهذا فضل من ا ،وان تكـن الأخـرى فحـسبي أننـي بـذلت الجهد،وأخلصت النية .

الفصل الأول

العسقلاني: حياته وثقافته

حري بنا قبل الولوج إلى الحديث عن التوجه البلاغي للعسقلاني من خـلال مصنفه الأعظم (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، الذي عول دارسـو الحـديث النبوي عليه كثيراً باعتباره أداة كاملة المعايير، لكشف البيان النبوي المعجـز بكـل حيثياته، أن نتوقف عند البخاري في صحيحه لنتعرف عليه، وكـذلك نقـف عنـد العسقلاني.

1.1 الإمام البخاري:

هو محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن بردزبه[(1)] البخاري الجعفي، يكنى بأبي عبدا واشتهر بالبخاري "ولد في وطنه الأول بخارى يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاثة عشرة ليلة خلت من شوال سنة 194هـ"[(2)] و توفي والده وهو صغير، فنشأ يتيمـاً في حجر أمه، وألهم البخاري حفظ الحديث وهو في الكتّاب، وكان عمره عندئـذ لا يتجاوز العشر سنين، وقام برحلة طويلة سنة210هـ في طلـب الحـديث، فـزار خراسان، والعراق، ومصر، والشام، سمع من نحو ألف شيخ من أبرزهم: مكي بـن إبراهيم، ويحيى بن يحيى، وأبو عبدالرحمن المقري، وعبدالعزيز الاويسي. يقـول البخاري: "لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم، ولم أكتب إلاّ عمن قال الإيمـان قول وعمل"[(3)] وجمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها في صحيحه مـا وثـق

---

(1) البخاري، أبو عبدا محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق عبدالعزيز بن بـاز، دار الفكر، القاهرة، 1991، ط1، ج1، ص3؛ العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد، هدي الساري مقدمة فتح الباري، تحقيق عبدالعزيز بن باز، ورقم أبوابها وأحاديثهـا: محمـد عبدالباقي، دار الكتب العلمية، بيـروت، 2004، ط1، ص5 وص452؛ ابـن خلكـان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عبـاس، دار صـادر، بيـروت، د.ت، ج4، ص190. (بردزبه بالفارسية: تعني الزراع).

(2) البخاري، الصحيح، ج1، ص3؛ العسقلاني، هدي الساري، ج1، ص5، 452.

(3) المرجع نفسه، ص3.

برواته، ومن الحكايات المؤكدة لسعة علمه وقوة حفظه، أنه عندما قدم إلى بغـداد اجتمع أصحاب الحديث لديه، وعمدوا إلى مئة حديث فقلبـوا متونهـا وأسـانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد هذا المتن والعكس، ودفعوا إلى كل واحـد عـشرة أحاديث ليتم إلقاؤها على البخاري في المجلس اختبارا له، فاجتمع الناس وقام الأول فسأله عن حديث من تلك العشرة فقال: لا أعرفه، فسأله عن الثاني فقال: لا أعرفـه حتى فرغ من العشرة. فقام الثاني فالثالث فالرابع وهو يقول: لا أعرف فلما فرغـوا التفت إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا والثاني صوابه كـذا حتى فرغ من العشرة، فرد كل متن إلى إسناده، وكل إسـناد إلـى متنـه، وفعـل بالآخرين مثل ذلك فأقر الناس له بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل(4). توفي ليلة الـسبت سنة 256هـ، مخلفاً وراءه مصنفات كثيرة(5) هي:

كتاب الجامع الصحيح، وكتاب الأدب المفرد، وكتاب بر الوالـدين، وكتـاب الهبة، وكتاب رفع اليدين في الصلاة، وكتاب قراءة خلف الإمام، وكتاب خلق أفعال العبد، وكتاب التاريخ الكبير، وكتاب التاريخ الأوسط، وكتـاب التـاريخ الـصغير، وكتاب الجامع الكبير، وكتاب المسند الكبير، وكتاب التفسير الكبير، وكتاب الأشربة، وكتاب العلل، وكتاب أسامي الصحابة، وكتاب الوجدان، وكتاب المبسوط، وكتـاب الكنى، وكتاب الفوائد.

وكانت هذه الآثار موطن اهتمام من الدارسين في كافة المجـالات الفقهيـة، والأدبية، والتاريخية، ولعل الجامع الصحيح أكثر هذه الآثار تداولاً بين الدارسـين، والدليل على ذلك أن شروحه زادت على السبعين شرحا(6) أذكر منها:

أعلام السنن: للخطابي (388هـ).

شرح صحيح البخاري: ابن بطال (499هـ).

---

(4) البخاري، الصحيح، ج1، ص4-5.

(5) السخاوي، حافظ، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجـر، تحقيـق حامـد عبدالمجيد، وطه الزيني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، د.ت، ص330.

(6) السيوطي، جلال الدين، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيـق عبـدالوهاب عبداللطيف، دار الكتب الحديثة، مصر، 1966، ص88.

شرح مشكل البخاري: محمد بن سعيد الواسطي (637هـ).

شرح البخاري: يحيى بن شرف النووي (676هـ).

البدر المنير الساري في الكلام على البخاري: عبدالكريم الحلبي (735هـ).

التنقيح في شرح الجامع الصحيح: محمد الزركشي (794هـ).

الإفهام شرح صحيح البخاري: جلال الدين البلقيني (824هـ).

التلقيح لفهم قارئ الصحيح: برهان الدين الحلبي (841هـ).

فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (852هـ).

عمدة القاري شرح صحيح البخاري: محمود بن أحمد العيني (855هـ).

التوشيح شرح الجامع الصحيح: جلال الدين السيوطي (911هـ)

إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: شهاب الدين القسطلاني(923هـ).

الفيض الجاري لشرح صحيح البخاري: إسماعيل بن محمد الهادي (1162هـ).

والسبب في كثرة الشروح يعود إلى أنه كما قال السيوطي: "أول مصنف في الصحيح المجرد" جمع فيه سبعة آلاف ومئتين وخمسة وسبعين حديثاً بالمكررة، وأربعة آلاف بدونها.

ويحتل (فتح الباري) مكانة متميزة من بين هذه الشروح جميعها، هذا الكتاب الذي يعد من المعالم الدالة على حرص العسقلاني على خدمة الحديث النبوي الشريف، لكونه مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، حيث الأحاديث شارحة ومفسرة للقرآن الكريم، ومفصلةً لما أجمل، فقد كانت العروة الوثقى التي اعتصم بها المفسر بعد انتخابه، ورفضه المردود، والغث، والمكذوب منها، فقد قال فيه الشوكاني أنه: "لا يدانيه شرح ولا هجرة بعد الفتح"(7) ولا اعتقد أن الشوكاني مبالغ في ما قال، فالمطلع على صنيع العسقلاني في فتح الباري يشهد له بذلك، فإنك تلحظ فيه مدى براعة العسقلاني في فك طلسمات البخاري مثل: براعة البخاري في ترتيب أحاديث الباب الواحد، وترتيب الأبواب، وفائدة تكرار الحديث هنا وهناك، والتوفيق بين الأحاديث المتعارضة، كما وتجده ينبه على أوهام شراح الصحيح مثل: الكرماني، وابن بطال، وابن التين، والداودي وغيرهم، وهو بهذا يجعل من الشرح

---

(7) العسقلاني، هدي الساري، ص4.

ديواناً للحديث النبوي الشريف بكل ترجماته. وهو يحتفظ بطريقته ذاتها في الـشرح التي تكشف عن وعي حصيف ،على الرغم من طول الشرح وضخامته، ويتوصل إلى الرؤى الكامنة وراء الحديث بألخص عبارة، وألطف إشارة، ويـشرح الحـديث بالمكان الذي هو أليق به، ويوجز شرحه أحياناً ويطنب أحياناً أخـرى بحـسب مـا يتطلبه الموضوع المطروح مستعيناً في هذا بكتب السنة الأخرى(8).

وزيادة على هذا أجد لهذا الكتاب أهمية خاصة، ويكتسب تلك الأهميـة مـن خلال عاملين:

الأول: ويتعلق بالعسقلاني ذاته، حيث شكل (فتح الباري) نقطة مفصلية فـي مسيرته الثقافية وجهته نحو الاهتمام بالحديث النبوي، وبانجاز البخاري تحديداً، فقـد صنف بعد الفتح: الاستنصار على الطاعن المعثار، وفوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال المذكورين في صحيح البخاري، وبغية الراوي بإبدال البخاري، والإنارة في أطراف الأحاديث المختارة، وتغليق التعليق، وأطراف الصحيحين وغيرها.

والثاني: يتعلق بالحركة الفقهية بعامة، إذ شكل صدور هـذا الـشرح أحـد الخطوط الرئيسة في دراسة صحيح البخاري دراسة متطورة، وذلك بما لجـأ إليـه العسقلاني من استغلال ناجح للانفتاح على الشروح السابقة: كـشرح ابـن بطـال، والنووي مع إفادته من طروحات عصره، وفتح المجال للشروح المقبلة التي تـوفر لها ما لم يتوافر للعسقلاني -وهو صنيع العسقلاني ذاته- كـشرح العينـي (عمـدة القارئ) والسيوطي (التوشيح) والنويري (التعليق) وغيرهم التي لم تـرق -علـى الرغم من ذلك– إلى مستوى شرح العسقلاني. فالعيني مثلا في (عمـدة القـارئ) البالغ خمسة وعشرين جزءاً، يظهر لديه مدى الاخـتلال الحاصـل فـي المـنهج والمنهجية؛ فهو يطنب في الأجزاء الأربعة الأولى إطناباً شـديداً، فيـورد الحـديث ويضع شرحه تحت عناوين: بيان تعلق الحديث بالترجمة، بيان رجاله، بيان ضـبط الرجال، بيان الأنساب، بيان فوائد تتعلق بالرجال، بيان لطائف إسناده، بيـان نـوع الحديث، بيان تعدد الحديث في الصحيح، بيان من أخرجه غيره، بيان اختلاف لفظه،

---

(8) لمزيد من الإطلاع حول مميزات الفتح. انظر: الشيخ، عبدالستار، الحافظ ابـن حجـر العسقلاني، دار القلم، دمشق، 1992، ص492-582.

بيان اللغة، بيان الإعراب، بيان المعاني، بيـان البيـان، بيـان البـديع، والأسـئلة والأجوبة، بيان سبب الحديث، واستنباط الأحكام، وفوائد تتعلق بالحديث.

لكنك تجده يكتفي بعد المجلد الرابع وحتى السابع عشر بالمطالـب الخمـسة الأولى فقط، ومن السابع عشر وحتى الخامس والعشرين تجده يشرح الحـديث دون عناوين، وهو أيضا شرح "أخذه من فتح الباري لابن حجر، ونقص منـه وزاد فيـه قليلاً، ولكن أكثره يسوقه بحروفه الورقة، والورقتين، وأقل وأكثر"(9) دون إشارة إلى ذلك.

حق لنا بعد هذا أن نتعرف إلى ثقافة ابن حجر العسقلاني، الذي اسـتطاع أن يؤلف هذا المصنف المتميز.

2.1 اسمه:

أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، شهاب الدين، ابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان (بفلسطين)، ومولده ووفاته بالقاهرة، ولـد سـنة 773هـ(10) أتم حفظ القران، وله تسع سنين، ولع بالأدب والشعر، ثم أقبـل علـى الحديث، وارتحل لطلب العلم إلى البلاد الشامية والحجازية، تلقى العلم على يد ثلـة من العلماء بلغ عددهم، ما يزيد على ست مائة عالم، أذكر منهم: البرهان التنـوخي، والهيثمي، والمجد الشيرازي، وابن الملقن، والمحب بن هشام، والغماري، وابن تيمية وتعلم على يديه: زكريا الأنصاري، وشمس الدين الـسخاوي، والجمـال إبـراهيم القلقشندي، والبرهان البقاعي، درس وأفتى، وأملى، وتولى القضاء لـسنوات عـدة توفي سنة 852هـ(11).

---

(9) السخاوي، الجواهر والدرر، ص318.

(10) المرجع نفسه، ص120؛ وانظر: العسقلاني، هدي الساري، ص4-5.

(11) العسقلاني، هدي الساري، ص4.

3.1 ثقافته:

من المعلوم أن العسقلاني ولد في بيت من بيوت العلم، وقد كان أبـوه نـور الدين بن قطب بارعاً في الفقه والعربية والأدب، وجعله هذا ينيب عن ابن عقيل في حلقاته، وجده قطب محمد بن ناصر الدين العسقلاني محدث فقيه، أجاز لـه ابـن عساكر وأبو الفضل، وقد ساعده على تحصيل العلـم عقـل واع، وذكـاء متوقـد، وحافظة قوية، إضافة إلى توافر المراجع والمصادر، النبع الذي ينهل منه كل عالم، فقد اطلع على خزانة كتب المدرسة الظاهرية القديمة، التي تحتوي على الأمهات من سائر العلوم، وعلى خزانة المدرسة المحمودية التي تولى العسقلاني القيـام علـى شؤونها(12)، إضافة إلى أن طبيعة المناصب التي تولاها العـسقلاني مـن قـضاء، وإفتاء، وتدريس، وخطابة، تتطلب التتبع والاطلاع؛ وذلك للإجابة على مـا يطـرح عليه من تلاميذه، ولحل ما يتعرض له من إشكالات، وبهذا تتسع معارفه، وتتنـامى مداركه، يقول السخاوي: "إنما كانت همته المطالعة والقـراءة والـسماع والعبـادة والتصنيف والإفادة، بحيث لم يكن يخلي لحظة من أوقاته عن شيء مـن ذلـك"(13) وإذا رجعنا إلى ثقافة العسقلاني، فإننا لا نجدها تتجلى في العدد الضخم من العلماء والشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم، بالقدر الذي نجدها متجلية في شرحه، ومنه عرفنا ثقافته الدينية والأدبية.

حيث لم يقتصر العسقلاني على فرع من فروع المعرفة، بل كان له في كـل كنانة سهم، وأخذ من شتى علوم عصره، فتبحر في العلوم الإسلامية، في الحـديث، والفقه، والتفسير، وما يتبعه من ناسخ ومنسوخ، ومطلق ومقيد. وتمهر فـي علـوم العربية من نحو وصرف، وشعر، وعروض، ونأخذ مثالا على ذلـك مـن (فـتح الباري): تعليق العسقلاني بعد قول النبي -صلى ا عليه وسلم- "اللهم لولا أنـت ما اهتدينا": "قال ابن التين: هذا ليس بشعر ولا رجز، لأنه ليس بموزون، وليس هو كما قال، بل هو رجز موزون، وإنما زيد في أوله سبب خفيـف ويـسمى الخـزم

---

(12) السخاوي، الجواهر والدرر، ص121.

(13) المرجع نفسه، ص123.

بالمعجمتين"(14) والعسقلاني محق فيما ذهب إليه فالخزم "زيـادة مـا دون خمـسة أحرف في أول البيت غالبا"(15). وبالعودة إلى البيت المذكور تجده يتـوزع علـى النحو التالي:

"اللهم لولا أنت ما اهتدينا"

-	- - ب -	- - ب -	ب - -
الخزم	مستفعلن	مستفعلن	فعولن

(زيادة حرفين)

ومثل هذه اللمسة المعمقة لهي دلالة بارزة على وعيه، وقدرته على التأمـل والاستنباط، ومدى ألمعيته في العربية والعروض.

وإلى جانب ذلك له ديوان شعر يحتوي على (1767) بيتاً، ويتحدث هو عـن مكنونه بقوله: "فقد سئلت غير مرة أن أجرد من منظومي طرفاً مهذباً، وأن أفرد من مقاطيعي التي تلهي عن المواصيل ما يكون منها مرقصاً ومطربـاً، فكتبـت هـذه الأوراق سبعة أنواع، من كل نوع سبعة أشياء إلاّ الأخير فافتتحـت بـالنبوات، ثـم الملوكيات، ثم الإخوانيات، ثم الغزليات، ثم الأغراض المختلفة، ثم الموشـحات ثـم المقاطيع"(16) ومن شعره(17):

يقول حسودي إذ مدحت مـ ـحمـداً	ليشفع لي: هل أنت بالشعر واصـل
وهل لك عند المصطفى من وسيـلة	وهل أنت مستجد؟ فقـلت: وسائـل

---

(14) العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبدالعزيز بن باز، ورقّم كتبهـا وأبوابها وأحاديثها محمد عبدالباقي، دار الكتب العلميـة، بيـروت 2004، ط1، ج10، ص543.

(15) الخطيب التبريزي، يحيى بن علي: الكافي في العروض والقوافي، علق عليـه إبـراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، ط1، ص100.

(16) العسقلاني، ابن حجر، تغليق التعليق، تحقيق سعيد القزقي، المكتب الإسلامي، بيـروت، ج1، ص162.

(17) المرجع نفسه،ج1، ص163.

ويقول في الزهد[18]:

ثلاث من الدنيـا إذا هي حـصلـت لشخص فلن يخشى من الضر والضير
غـنى عن بنـيها والسلامـة منـهم وصـحـة جسـم ثم خاتمـة الخـير

وهو شعر في الحقيقة أقرب إلى النظم منه إلى الشعر لأنه خال من الخيـال ومليء بالمصطلحات الدينية.

وهو أيضاً من أحسن الذين كتبوا في التاريخ والتراجم: فكتابه الإصابة فـي تمييز الصحابة، والدرر الكامنة، وتهذيب التهذيب علامة دالة علـى ذلـك، وهـو صاحب حس نقدي تاريخي مميز، يتجلى(19) في:

1. نقد الرجال من خلال الكشف عن الصفات الأصلية فيهم، المعبرة عن حالهم.
2. إصدار الأحكام والتقاويم على الملوك، والسلطان، والأمراء، والقضاة من خلال مقاييس خاصة بكل طبقة على حدة.
3. نقد الحوادث: ويتمثل ذلك بنقد الروايات التاريخية وإصدار الأحكام عليها.
4. نقد المصادر: وذلك إما بنقد النقول منها على أنها جزئيات تخضع لتصديق العقل أو رده لها أو بالنقد الشمولي للمصدر ككل.

وآتت هذه الثقافة المتنوعة ثمارها، فخلف تلك الثروة الضخمة مـن الكتـب القيمة التي زادت على المائة والخمسين مصنفاً، وأسهمت بحظ وافـر فـي الفكـر الإسلامي والعربي، والعلوم، والتاريخ. وقد انتشرت مؤلفاته في الـبلاد الإسـلامية شرقاً وغرباً، وأقبل الناس عليها يتدارسونها، ويفيدون منها منذ أن كان حيـاً أذكـر منها، على سبيل المثال لا الحصر(20):

فتح الباري شرح صحيح البخاري، الدرر الكامنة في أعيان المئـة الثامنـة، لسان الميزان، ألقاب الرواة، تقريب التهذيب، تهذيب التهذيب، الأحكام لبيان ما فـي القرآن من الأحكام، تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، القول المسدد فـي

---

(18) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص163.

(19) الشيخ عبدالستار، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ص181.

(20) العسقلاني، هدي الساري، ص6.

الذب عن مسند الإمام أحمد، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، رفع الإصر عن قضاة مصر، وإتحاف المهرة بأطراف العشرة، ونزهة الألباب في الألقاب، وتغليق التعليق.

4.1 منزلته البلاغية:

لم يترك العسقلاني في البلاغة مؤلفاً مستقلاً إلا كتاب "غراس الأساس" جمع فيه المجازات الواردة في "أساس البلاغة للزمخشري، وناقشها، وزاد عليها، يقـول العسقلاني: "فرأيت أن المهم منه [أي أساس البلاغة] ما تميز عن الكتب المصنفة في اللغة من تبيين الحقيقة من المجاز، والتمكن مـن اجتنـاب الإسـهاب، وارتكـاب الإيجاز"(21) وقام تعقب "الغراس" "للأساس" على أساس المجاز وحده، يقـول ابـن حجر:

"فرأيت الاقتصار منه على ما جزم بأنه وضع على سبيل المجـاز، مكتفيـاً بالكتب المصنفة في اللغة، فإنها أوعب لها من هذا الأساس؛ فمن لم يجد فـي هـذا المختصر شيئا، فليجزم بأنه وضع على سبيل الحقيقة، معتمداً على هذا الإمام البليغ المطلع"(22).

وهذا يعتبر اعترافاً منه بأنه يحرر، ويقرر، وينظم، ما جـادت بـه قريحـة الزمخشري، في الكشاف موافقاً تارة، ومكتفياً بما أورده، ومخالفاً له تارة أخـرى، ومستدركاً لما أغفله الزمخشري مثال ذلك استدراكه في المواد "إخوان، وأف، وأهل، وبرطل، ودسر، ورمع، وذرف، وغيرها"(23)، وهي دلالة على رسوخ قدم ابن حجر في البلاغة، وعلى مدى تمكّنه من العربية وفنونها، ولم يكن ابن حجر يبني أحكامه

---

(21) العسقلاني، ابن حجر، غراس الأساس، تحقيق توفيق محمـد شـاهين، مكتبـة وهبـه، القاهرة، 1980، ص(ع)؛ الزمخشري، جار ا محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق عبدالرحيم عمر، دار المعرفة، بيروت، صفحة(و).

(22) العسقلاني، غراس الأساس، ص(ع).

(23) المرجع نفسه، ص(ق).

على "الأساس" جزافاً، بل كان يعتمد في ذلك على أمهات الكتب اللغوية كالـصحاح، والقاموس.

تلك هي حلقة الوصل الأولى التي ربطت ما بين العسقلاني والبلاغة، فكيف هي البلاغة في شرحه "فتح الباري"؟

يمكنني بعد معايشة المسائل البلاغية في فتح الباري، ومصاحبتها أن أقـول: إن العسقلاني كان يعتمد في كثير من آرائه البلاغيـة علـى العلامـة عبـدالقاهر الجرجاني، والزمخشري وخاصة في البيانية منها، ومعلوم أن بلاغة الجرجاني هي النبع المتفجر الذي نهل منه الزمخشري، وغيره من البلاغيين، وهذا لا ينفي اطلاعه على صنيع المحدثين أو أصحاب المعاني والبيان، والبديع كما سماهم العـسقلاني، أمثال القز ويني، والسكاكي، ولعل في ارتضائه لمفهوم القز ويني للبلاغة "مطابقـة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"(24) واعتباره المفهوم الجامع المانع ما يثبت ذلك. وإذا ما حاولنا أن نعين المواضع التي تأثر بها بكل من الجرجاني، والزمخـشري، فإنني أشير إلى أنه تأثر بالشيخ عبدالقاهر في التشبيه المفرد والمركـب، والتـشبيه البليغ، والاستعارة اللفظية، والتبعية، وفي تعريف الكناية واعتبارها –أحياناً- مرادفة للتعريض، والرمز(25).

أما آراء الزمخشري، التي تشربها تنظيراً وتطبيقاً عبر كتابي أساس البلاغة، والكشاف، فإن منها:

عدم التفريق بين التشبيه والتمثيل، والتفريق أحياناً بين الكناية والتعـريض، والاستعارة اللفظية، وإحالته في هذا على دراسة الشيخ المتحدث اللغوي، تقي الدين السبكي الموسومة بـ"الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض"(26).

وتجده يردد آراءهما كثيراً في شرحه، بخاصة عنـد تناولـه لمـسائل علـم المعاني(27) وقد لاحظت أنه متأثر في قليل من المواضع بآراء الرماني، والزجـاج،

---

(24) العسقلاني، فتح الباري، ج13، ص152.

(25) المرجع نفسه، ج10، ص461.

(26) المرجع نفسه، ج10، ص501.

(27) المرجع نفسه، ج13، ص330.

والقرطاجني، وابن الأثير، ولعلّ السبب في هذا هي تكامل المدارس البلاغيـة فـي عصره وتوفر مصادرها، وسأشير إلى ذلك كله في مواضعه من هذه الدراسة.

ولعلّ في ذكري لمصادره البلاغية الواردة الذكر في "فتح الباري" مـا يزيـد مكانة العسقلاني البلاغية إيضاحاً، فقد حوى الشرح الكثيـر مـن أسـماء العلمـاء والمصنفات في مختلف جوانب المعرفة، مع أمانة في النقل، ودقـة فـي التوثيـق، وإغفال ذلك في القليل النادر، والعسقلاني بذكره للمصادر يكون قد حفظ لنا كثيـراً من المصنفات التي لا نعرف شيئا عنها، كما أنه حفظ أقوال العلمـاء التـي فقـدت مصنفاتهم، ويكون بهذه قد قدم خدمة كبيرة للعلم وأهله.

وسنبدأ بعلماء البلاغة والعربية على وفق ذكرها في فـتح البـاري، ومـن الجديد بالذكر أني توصلت إلى إثبات بعض الأعلام، دون أن يكون لها ذكر صريح في المصنف مستنتجة ذلك من خلال الآراء التي تبناها في "فتح الباري".

مصادره من علماء البلاغة والعربية:

عبدالقاهر الجرجاني(28): أحد أعلام البلاغة الأفذاذ، له كتاب أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز.

أبو هلال العسكري(29): أبو هلال الحسن بن عبدا ، لغوي نحوي، له كتاب الصناعتين.

ابن الأثير(30): ضياء الدين الجزري، لغوي نحوي، له كتاب المثل الـسائر والجامع الكبير.

الرماني(31): أبو الحسن علي بن عيسى، عُرف بكتاب النكت فـي أعجـاز القرآن.

الزمخشري(32): محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم جار ا ، مفسر لغـوي نحوي له تفسير الكشاف، وكتاب أساس البلاغة.

---

(28) العسقلاني، فتح الباري، ج13، ص173.

(29) المرجع نفسه، ج8، ص173.

(30) المرجع نفسه، ج9، ص89.

(31) المرجع نفسه، ج3، ص55.

المبرد(33): محمد بن يزيد أبو العباس المبرد. أخذ عن أبو عثمان المـازني رأس المدرسة البصرية، له كتاب المقتضب والكامل.

الزجاج(34): إبراهيم بن السري، من كبار النحاة له كتاب يسمى معاني القرآن وإعرابه.

ثعلب(35): أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني، له كتاب قواعد الشعر.

الفراء(36): يحيى بن زياد بن عبدا ، إمام الكوفة في النحو، له كتاب معاني القرآن.

الاخفش(37): سعيد بن مسعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط، له كتاب معـاني القرآن.

الباقلاني(38): ابو بكر محمد بن الطيب، له عدة مؤلفات منها: إعجاز القران، وكتاب التمهيد، ونكت الانتصار لنقل القرآن.

أبو عبيدة(39): معمر بن مثنى التيمي، من أعلام اللغة، لـه كتـاب مجـاز القرآن.

ابن فارس(40): أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسن، مـن أئمـة اللغـة، صاحب كتاب المجمل.

ابن الانباري(41): أبو البركات عبدالرحمن بن محمد كمال، له عدة مصنفات منها: فقه اللغة، ويتيمة الدهر.

---

(32) المرجع نفسه، ج1، ص192، ج3، ص352، ج9، ص188، ج10، ص153، ج13، ص152.

(33) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص418، ج9، ص132.

(34) المرجع نفسه، ج8، ص158، ج9، ص132.

(35) المرجع نفسه، ج9، ص132.

(36) المرجع نفسه، ج9، ص306.

(37) المرجع نفسه، ج9، ص309.

(38) المرجع نفسه ، ج8، ص173.

(39) المرجع نفسه، ج3، ص222، ج8، ص162، ج9، ص133.

(40) المرجع نفسه، ج9، ص306.

الجوهري(42): إسماعيل بن حماد أبو نصر الجوهري، إمام في اللغـة، لـه كتاب صحاح اللغة.

الخليل(43): الخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب كتاب العين.

ابن السكيت(44): يعقوب بن إسحاق، من كبار اللغويين الكوفيين.

قطرب(45): محمد بن المستنير، أخذ عن سيبويه وعيسى بن عمرو.

ابن خالويه(46): الحسين بن أحد بن خالويه، لغوي من كبار النحاة، له العديد من المصنفات في النحو والقراءات.

ابن هشام(47): أبو محمد جمال الدين، له كتاب "مغني اللبيـب عـن كتـب الاعاريب"، وتلقى العسقلاني النحو على يد ابنه محب الدين ابن هشام.

القزويني(48): الخطيب جلال الدين محمد بن عبدالرحمن، له كتاب الإيضاح والتلخيص.

السكاكي(49): أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، لغوي بلاغـي، له كتاب مفتاح العلوم.

سيبويه(50): عمرو بن قنبر أبو بشر، رأس المدرسة البصرية، عرف بمصنفه "الكتاب".

([41]) المرجع نفسه، ج9، ص132.

([42]) العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص475.

([43]) المرجع نفسه، ج8، ص340.

([44]) المرجع نفسه، ج9، ص68.

([45]) المرجع نفسه، ج8، ص179.

([46]) المرجع نفسه، ج11، ص76.

([47]) المرجع نفسه، ج4، ص543.

([48]) المرجع نفسه ، ج9، ص65.

([49]) المرجع نفسه، ج10، ص82، 12، ص78.

([50]) المرجع نفسه، ج10، ص82.

الجاحظ(51): أبو عثمان عمرو بن بحر، له عدة مـصنفات فـي البلاغـة، والنحو، والأدب منها: البيان، والتبيين، والحيوان.

ابن مالك(52): محمد بن عبدا بن مالك الطائي، وهو إمام في النحو واللغة، عالم بالقراءات والحديث، والشعر عرف بالألفية.

مصادره من علماء التفسير:

القرطبي(53): محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري المـالكي، لـه تفـسير الجامع لأحكام القرآن.

الفخر الرازي(54): محمد بن عمر بن الحسين بن علي، برع في كثيـر مـن العلوم، له تفسير "التفسير الكبير".

الطبري(55): محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري، كان إماماً بارعـاً في فنون كثيرة، مفسراً ومؤرخاً ومحدثاً ومجتهداً، له تفسير يسمى جامع البيان فـي تأويل آي القرآن.

ابن عطيه(56): عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن، كان مفسراً وفقيهاً ونحوياً ولغوياً، له تفسير يسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز".

الثوري(57): أبو عبدا سفيان بن سعيد بن مسروق، أحد الأئمـة الخمـسة، عرف بتفسيره "تفسير الثوري".

ابن المنذر(58): الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنـذر، مـن أشـهر شيوخه البخاري، له كتاب "تفسير القرآن".

---

(51) المرجع نفسه، ج8، ص418، ج9، ص58.

(52) العسقلاني، فتح الباري، ج4، ص33.

(53) المرجع نفسه، ج1، ص121.

(54) المرجع نفسه، ج8، ص149.

(55) المرجع نفسه، ج9، ص289.

(56) المرجع نفسه، ج3، ص20.

(57) المرجع نفسه ، ج8، ص154.

(58) المرجع نفسه، ج8، ص175.

مصادره من علماء الفقه:

الشافعي(59): محمد بن إدريس بن العباس بن شافع القرشـي، أحـد الأئمـة الأربعة، له كتاب الأم والمستدرك.

النووي(60): الحافظ محي الدين، أبو زكريا يحيى بـن شـرف، لـه كتـاب "خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام"، وكتاب مختصر سنن الترمذي وغيرها كثير.

الغزالي(61): أبو حامد محمد بن محمد، الفقيه الصوفي، لقب بحجة الإسـلام، له مصنفات كثيرة في الفقه والفلسفة والتاريخ، أذكر منه: تهافت الفلاسفة الوسيط في فقه الإمام الشافعي.

الشيرازي(62): علي بن محمد بن رضا، عرف بمصنفه "المهـذب"، وذكـر أيضاً، إبراهيم بن علي الشيرازي صاحب كتاب "اللمع".

السروجي(63): أحمد بن عبدالغنى السروجي، سمي بالسروجي نـسبه إلـى مدينه "سروج" بشمال "حران"، فقيه، محدث، من أشهر كتبه "شرح الهداية".

مصادره من علماء الحديث:

الإمام مسلم(64): أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، إمام أهـل الـسنة، عرف بصحيحه.

أبو داود(65): سليمان بن الأشعث السجستاني عرف بمصنفه "سنن ابن داود".

---

(59) العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص474.

(60) المرجع نفسه، ج8، ص173.

(61) المرجع نفسه، ج8، ص163.

(62) المرجع نفسه، ج5 ، ص158.

(63) المرجع نفسه، ج6، ص321.

(64) المرجع نفسه ، ج8، ص161.

النسائي(66): أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، عرف بمصنفه سـنن النسائي.

الترمذي(67): أبو عيسى، محمد بن عيسى بن موسى الضحاك السلمي، فقيـه مفوه، له عدة مصنفات منها، سنن الترمذي والشمائل المحمدية، والجرح والتعديل.

الدار قطني(68): علي بن عمر بن أحمد بن مهـدي، البغـدادي، المقـرىء المحدث، له عدة مؤلفات منها: علل الحديث والمؤتلف والمختلف.

أحمد بن حنبل(69): أبو عبدا ، أحمد بن محمد بن حنبل، أحد الأئمة الأربعة، ومن أشهر مصنفاته: المسند، الذي يحتوي أكثر من أربعين ألف حديث.

البزار(70): أبو بكر أحمد بن عمرو البصري، من علماء الحديث المعروفين، اشتهر بكتابه، النافع المسند.

الحاكم(71): أبو علي المنصور بن العزيز با ابن نزار النيسابوري، عـرف بكتاب "الإكليل".

ابن التين(72): أبو محمد عبدالواحد بن عمر بن ثابت، له عدة مصنفات منها: الخبر الفصيح، والجامع لفوائد مسند البخاري الصحيح.

---

(65) المرجع نفسه، ج3، ص256.

(66) العسقلاني، فتح الباري، ج3، ص474.

(67) المرجع نفسه، ج8، ص171.

(68) المرجع نفسه، ج7، ص476.

(69) المرجع نفسه، ج9، ص161.

(70) المرجع نفسه، ج10، ص348.

(71) المرجع نفسه، ج9، ص161.

(72) المرجع نفسه ، ج8، ص342.

ابن بطال(73): علي بن خلف بن بطال البكري، القرطبي، عني بالحديث عناية تامة وبالبخاري تحديداً، وكان شرحه المسمى بـ"شرح صحيح البخاري" من أعظم شروح الصحيح.

الكرماني(74): أبو الحكم، عمرو بن عبدالرحمن بن علي الكرماني، عرف بشرحه للبخاري الموسوم بـ"الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري".

المهلب(75): المهلب بن أبي صفرة الأزدي، عينه الحجاج عاملاً على خراسان، له كتاب "المختصر النصيح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح".

الحلبي(76): علي بن الحسن الحلبي، له كتاب يسمى "الاعتصام من صحيح البخاري".

البغوي(77): أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، له كتاب مجموعة الفتاوي، الجامع بين الصحيحين، معالم التنزيل.

ابن وهب(78): عبدا بن وهب بن مسلم الفقيه المالكي المصري، عرف بكثرة روايته للحديث.

البيهقي(79): أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، محدث فقيه، من مؤلفاته، السنن الكبرى، دلائل النبوة، شعب الإيمان.

مصادره من علماء التراجم:

ابن سعد(80): أبو عبدا محمد بن منيع البغدادي، يطلق عليه كاتب الواقدي، له كتاب الطبقات الكبرى.

---

(73) المرجع نفسه، ج10، ص360.

(74) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص271.

(75) المرجع نفسه، ج10، ص367.

(76) المرجع نفسه، ج10، ص463.

(77) المرجع نفسه، ج8، ص271.

(78) المرجع نفسه، ج10، ص297.

(79) المرجع نفسه، ج1، ص121.

(80) المرجع نفسه، ج9، ص279.

الباجي(81): القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الأندلسي، إمام وفيه مـالكي، من مصنفاته: "مختصر المختصر، والمنتقى في الفقه، وسـنن المنهـاج وترتيـب الحجاج".

الخليلي(82): أحمد بن أحمد بن سليمان الخليلي، من أبـرز كتبـه: جـواهر التفسير والحق الدامغ، وسقط القناع.

البلاذري(83): أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، له عدة مـصنفات منهـا: أنساب الأشراف، وفتح البلدان.

الذهبي(84): محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تـرك إنتاجـاً غزيـراً مـن المؤلفات غير أنه من أشهر كتبه كتابان: سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام.

مصادره من علماء التاريخ:

الواقدي(85): محمد بن عمر بن واقد الأسلمي، عرف بكتابه "المغازي".

السهيلي(86): عبدالرحمن بن الخطيب بن عبدا السهيلي، سافر إلى غرناطة للتدريس له كتاب "الروض الأنف، والمنهل الروي في ذكر ما حدث عن رسول ا وروى".

ابن عساكر(87): أبو القاسم علي بن الحسين بن وهبة ا بن عـساكر، لـه كتاب "تاريخ دمشق".

الفاكهي(88): أبو عبدا محمد بن إسحاق بن العباس، لم يعرف له من الكتب سوى مؤلفه الثمنين "أخبار مكة".

([81]) المرجع نفسه ، ج8، ص232.

([82]) العسقلاني، فتح الباري، ج6، ص321.

([83]) المرجع نفسه، ج10، ص463.

([84]) المرجع نفسه، ج6، ص875.

([85]) المرجع نفسه، ج12، ص345.

([86]) المرجع نفسه، ج8، ص175.

([87]) المرجع نفسه، ج10، ص362.

([88]) المرجع نفسه، ج11، ص453.

محمد الجوهري(89): محمد بن قدامه الجوهري، له عدة مصنفات من أبرزها "أخبار الخوارج".

غنجار(90): أبو أحمد عيسى بن موسى البخاري، عرف بكتابه "تاريخ بخارى".

ابن نعيم(91): إبراهيم بن نعيم العدوي، له عدة مصنفات منها، تاريخ أصبهان.

إن الاطلاع على هذا الكم الهائل من مصنفات هولاء الأعلام، ليعطي فكرة طيبة عن القيمة العالية التي يتمتع بها "فتح الباري"، وعن مدى غنى شخصية العسقلاني بجانبيها المعرفي والعلمي، وعن مدى متابعته لكل ما يستجد على الساحة الثقافية بكل فروعها، وعن إتقانه وشدة جاده في ملاحقته للمعلومة هنا وهناك، وكل هذا مجتمعا ساهم في إعطاء تجربته التصنيفية كل الأبعاد المتصلة بالغنى، والعمق، والشمول. ويلفت نظر المطلع على المصنفات السابقة كثرة المصادر والمراجع الخاصة بالحديث النبوي الشريف، وهو شيء طبيعي تفرضه طبيعة الدراسة ذاتها.

5.1 المدارس البلاغية في عصر العسقلاني:

لم تكن البلاغة العربية وليدة يوم وليلة، بل مرت عبر أطوار متباينة، ومراحل مختلفة، حتى أصبحت علما مستقلا له مصطلحاته، وخصائصه، وأصوله، وفروعه الخاصة به، و لقد أثر المفسرون والفقهاء، واللغويون والأدباء، والنقاد، والمتكلمون، والشعراء في تطور هذا العلم، ونشأته –ولما لم يكن من مقصدنا التأريخ لهذا العلم فإنني سأكتفي بالإشارة السريعة إلى أهم المراحل التي مرت بها البلاغة العربية وصولاً إلى عصر العسقلاني البلاغي تحديداً -وقد مرت بعدة أطوار هي:

أولاً: مرحلة الجذور: (وتشمل القرنيين الأول والثاني الهجري).

---

(89) المرجع نفسه ، ج8، ص340.

(90) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص243.

(91) المرجع نفسه، ج9، ص290.

إذا تجاوزنا الإشارات البلاغية السريعة التي اشتهرت في العصرين الجاهلي والإسلامي، وجدنا أن البلاغة في هذه المرحلة اتسمت بما يلي(92):

أ. عدم التحديد للمصطلحات البلاغية.

ب. تأطير البلاغة بالمقاييس العربية القاطعة.

ج. انعدام التبويب والتقسيم.

د. انعدام الاستقلالية وتمازج مسائل البلاغة بغيرها من العلوم.

وخير من يمثلها(93): أبو عبيدة (مجاز القرآن)، والجاحظ (البيان والتبيين)، وابن قتيبة (مشكل القرآن).

ثانياً: مرحلة المصنفات المنهجية: (وتشمل القرنيين الثالث والرابع).

حيث ظهر في نهاية القرنين الثالث والرابع العديد من المؤلفات التي انحازت إلى الجانب النظري، وأشارت إلى مجموعة من المقاييس والضوابط العامة الواجب توافرها، واهتمت بعضها بالجانب العملي والموازنة ما بين ممثلي الحركة البلاغية من الكتاب والشعراء ومن أبرز صانعي هذه المرحلة(94): ابن المعتز (البديع)، قدامه بن جعفر (نقد الشعر)، القاضي الجرجاني (الوساطة)، الآمدي (الموازنة).

ثالثاً: مرحلة التكامل والازدهار: (وتجلت في نهاية القرنين الخامس والسادس الهجريين).

وخير من يمثلها عبدالقاهر الجرجاني، الذي استطاع أن يهضم كل ما أنجز سابقاً، ويتوصل بنظريته "النظم" في كتابه دلائل الإعجاز إلى وضع الإطار العام لعلم المعاني، وإلى تحديد موضوعات علم البيان، ودور الصور البلاغية قي تحديد الرؤيا الكامنة في كتابه أسرار البلاغة، ثم كان الزمخشري وكتابه الكشاف(95)، وهو

---

(92) ضيف، شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، 1965، ط1، ص162.

(93) ضيف، شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، ص19-61.

(94) المرجع نفسه، ص62-160.

(95) الزمخشري، أبو القاسم جار ا محمود، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبطه ورتبه مصطفى حسين ، دار الريان، القاهرة ،ط3، د.ت، ج1،

تفسير للقرآن وفق المنهج البلاغي، الذي حدد معالمه عبدالقاهر الجرجـاني، حيـث قسم البلاغة إلى قسمين: علم المعاني، وعلم البيان، وجعـل البـديع مجـرد حلـى وزخارف لفظية لا تضر المعنى. وتتميز هذه المرحلة بما يلي:

أ. الدقة في التقسيم.

ب. عدم انفصال المعايير البلاغية عن النصوص.

رابعاً: مرحلة التحديد والحدود: (وتمتد من القرن السابع وحتى التاسع).

وأطلقنا مصطلح التحديد والحدود؛ لأنه في هـذا العـصر حـددت العلـوم والمعايير الجزئية فيها تحديداً دقيقاً، لكنها كبلت داخل الحدود الكلامية، والمنطقيـة القاتلة للروح الفنية.

وفي هذه المرحلة - كما أشرت في المفهوم - كثرت التقسيمات، وضبطت القواعد، وزينت بالحدود الفلسفية المنطقية، والنزعة الكلامية، وهـذا أدى إلـى أن تصبح البلاغة ميداناً "لعرض القضايا العقلية والخلافات الفلسفية حتى قيل إن هـذه الشروح [ويعني مؤلفات تلك المرحلة البلاغية] ضمت كل شـيء إلا البلاغـة"(96) وكان السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم"، والقزويني في كتابه التلخـيص والإيـضاح خير من مثل هذه المرحلة.

ونتيجة هذه المراحل المختلفة والمتطورة ظهرت مدرستان رئيـسيتان فـي البلاغة هما(97):

المدرسة الأدبية: وكان للكتاب، والشعراء، وعلماء القرآن الكريم دور واضح في هذا الاتجاه، حيث طبع هؤلاء دراساتهم بطابع أدبي، أكثروا فيها مـن الـشواهد والأمثلة، واستخدموا المقاييس الفنية في الحكم على الأدب، وظهر هذا المنهج فـي

ص51. يقول الزمخشري: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد بـرع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان".

(96) مطلوب، أحمد، البحث البلاغي عند العرب، منشورات دار الجـاحظ، بغـداد، 1982، ط1، ص51-52.

(97) مطلوب، أحمد، البلاغة العربية، وزارة التعليم العـالي ، بغـداد، 1980، ط1، ص7.

البيئات العربية كمصر والشام، ومنهم كتاب البديع لابن المعتـز، والمثـل الـسائر والجامع الكبير لابن الأثير، وأسرار البلاغة للجرجاني.

المدرسة الكلامية: وثقت هذه المدرسة الصلة مـا بـين البلاغـة والفلـسفة والمنطق، اهتموا بالتحديد والتقسيم المنطقي، وظهرت في البيئات المختلطة بـالعجم (الشرقية)، ويمثلها السكاكي، والقزويني، والرازي، والعلوي.

ومن هنا نخلص إلى أن عصر العسقلاني، عصر تكاملت بـه الطروحـات البلاغية بفرعيها، الكلامي والأدبي، وقد أفاد العسقلاني بحق من طروحـات كـلا المدرستين، تجلى هذا في فتح الباري من خلال مناقشته لمفهوم البلاغة في الجـزء الثالث عشر من "فتح الباري" إذ يقول:

"واختلف في تعريف البلاغة فقيل: أن يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه وقيل: إيصال المعنى إلى الغير بأحسن لفظ وقيل: الإيجاز مع الإفهام والتقرب من غيـر إضمار، وقيل: قليل لا يبهم وكثير لا يسأم، وقيل: إجمال اللفظ واتساع المعنى، وقيل تقليل اللفظ وتكثير المعنى، وقيل: حسن الإيجاز مع إصابة المعنى، وقيـل: سـهولة اللفظ مع البديهة، وقيل: لمحة داله أو كلمة تكشف عن البغية، وقيل: الإيجـاز مـن غير عجز الإطناب من غير خطأ، وقيل: النطق في موضعه والسكوت في موضعه، وقيل: معرفة الفصل والوصل، وقيل: الكلام الدال على آخره وعكسه، وهذا كله عن المتقدمين، وعرف أهل المعاني والبيان والبلاغة بأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال والفصاحة" وهي خلو عن التعقيد وقالوا المراد بالمطابقة: ما يحتـاج إليـه المـتكلم بحسب تفاوت المقامات كالتأكيد وحذفه، والحذف وعدمه أو الإيجاز والإسهاب ونحو ذلك وا أعلم"[98].

فهو يعرض مفهوم البلاغة عند العسكري (أن يبلغ بعبارة لسانه كنه ما فـي قلبه) وعند الرماني (إيصال المعنى إلى الغير بأحسن لفظ)، وعند الجاحظ (معرفـة الوصل من الفصل) وغيرهم، ويختم بمفهوم القزويني وهو من المتكلمين ويعتبـره المفهوم الجامع المانع، كما ويلحظ مدى إفادته من خلال إشارته إلى الفنون البديعية

([98]) العسقلاني، فتح الباري، ج13، ص330.

في شرحه التي جاءت على يد مؤسسها -إن جاز التعبير- ابن المعتز مثل: الالتفات، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، إضافة إلى الضروب التي استقرت على يد المتكلمين من أمثال السكاكي، والقزويني مثل: الاستخدام، والتجريد، واللف والنشر، والاستطراد إلا أنه ممن تأثر بمنهجية المدرسة الأدبية في التحليل والدليل على ذلك:

أ. إفادته إفادة كبيرة في تحليله من أتباع المدرسة الأدبية وخاصة الزمخشري(99) وابن الأثير(100) والعسكري(101) وأبو عبيدة(102) والقرطبي(103).

ب. انعدام عناية العسقلاني بضبط المصطلحات البلاغية وتقسيماتها، فقد يكتفي أحيانا بقوله لضروب علم البيان جميعها، وهو مجاز.

ج. سلاسة الأسلوب، ورقة العبارة التي يستخدمها العسقلاني في شرحه للصحيح.

د. إكثاره من الأمثلة والشواهد الشعرية في أثناء التحليل.

هـ. لم يعتن بالبديع عنايته بالمعاني والبيان؛ ولعلّ السبب في ذلك نظرته إلى البديع على أنه محسنات تضفي على الكلام جمالية خاصة، فلا يحتاج إلى وقفة تأمل وتفصيل؛ ولأن البديع من مباحث أسرار البلاغة في الحديث النبوي لا يدخل في قضية إعجازه، وما ورد منه في الحديث يأتي دون تكلف.

6.1 القيمة العلمية للقضايا البلاغية عند العسقلاني:

شهد العديد من المؤرخين وأصحاب التراجم للعسقلاني بالتقدم والتألق في شرحه فالشوكاني يقول فيه: أنه لا يدانيه شرح ولا هجرة بعد الفتح، وهذه الشهادة العظيمة التي قيلت بحق فتح الباري، ما جاءت إلا لأنه شرح تمثل جل الشروح التي سبقته، وسعى إلى التماس أقرب الأقوال للحق، والصواب مع حسن بيان، وإلمام

---

(99) العسقلاني، فتح الباري، ج9، ص188، ج10، ص153.

(100) المرجع نفسه، ج9، ص89.

(101) المرجع نفسه، ج8، ص173.

(102) المرجع نفسه، ج9، ص133.

(103) المرجع نفسه، ج8، ص148.

بكثير من الموضوعات حتى غدا الشرح موسوعة علمية ضخمة تضم البلاغة، واللغة، والفقه والتفسير.

وكان تناول العسقلاني للمسائل البلاغية تناولاً جزئياً، وليس شاملاً لجميع الأحاديث النبوية، مما يجعلنا نقول: إن حجم المادة البلاغية إذا قيس بغيرها من العلوم في شرح العسقلاني كانت قليلة، ولكن إذا تم تناولها بانفراد كونت مادة علمية ضخمة.

أما عن القيمة العلمية للقضايا البلاغية عنده فمن خلال إطلاعي على القضايا البلاغية لديه تبين فإنه تبين للدارس ما يلي:

أ. تأثر العسقلاني بمن سبقه تأثراً كبيراً في الجوانب البلاغية إلا أنه يلحظ في هذا التأثر أن يوافق جميع الطبقات من اللغويين والبلاغيين والمفسرين، ومن أبرزهم: أبو عبيدة، والفراء، والطبري، والجرجاني، والزمخشري، وابن الأثير، والقرطاجني، وغيرهم.

ب. استوعب العسقلاني في شرحه جميع المباحث البلاغية (المعاني، البيان، البديع).

ج. لم يكن العسقلاني مشغولاً بالتأصيل النظري للقضايا البلاغية –في الأغلب الأعم– من شرحه، بل يكتفي بالإشارة إلى هذا الضرب البلاغي وذاك فقط.

د. لم يعتن بتحديد المصطلحات البلاغية واستخدامها بالمفهوم الذي استقرت عليه، بل هو يتوسع في إطلاقها، فالحذف عبر عنه بالاختصار والإضمار والاطواء، والالتفات عبر عنه بصرف الكلام وتلون الخطاب.

هـ. لم يكشف العسقلاني في أغلب وقفاته البلاغية عن الأسرار أو الرؤى الكامنة التي توضحها الأساليب البلاغية وبخاصة :الوصل والفصل، والالتفات، والقصر.

و. اتسم أسلوب العسقلاني في تناوله للقضايا البلاغية بالسلاسة والعذوبة والدقة في التعبير، وابتعد عن التعقيدات اللفظية وهي نقطة تحسب له، وقد وجدت له في خضم ذلك وقفات تنبئ حقاً عن عقلية مدركة لأساليب العرب في كلامهم ونظمهم.

الفصل الثاني

علم المعاني

1.2 البلاغة ماهيتها وأبعادها:

البلاغة موروث كثر الجدل حوله منذ العصر القديم وحتى عصرنا الحديث، ولا أرى أهمية للخوض في مفهومها الذي أصبح من الأمور المسلمة بها، وإن كنا نلحظ تبايناً في دلالتها، فمنهم من ينطلق في مفهومها من دلالتها العامة، كما هو الحال لدى العسكري الذي يجعلها علم "ينهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"(104)، ومنهم من تدفعه ضبابية المصطلح إلى الإيغال في قصرها على أحد جهاتها من فصل ووصل، إيجاز ومجاز كما هو الحال لدى الجاحظ والرماني وغيرهما، وصولاً إلى مفهومها الجامع المانع وهو "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"(105)، الذي يفصل فيه القزويني بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم، ويصبغها بالطابع الحواري، لا كما يدعي هنريش بليث -أحد أعلام الأسلوبية الحديثة- الذي يرى أن البلاغة المعيارية في جملتها ما هي إلا "إنتاج نصوص حسب قواعد فن معين"(106)، ولا أعتقد أنه محق في كل ذلك، فدلائل الإعجاز للجرجاني، والكشاف للزمخشري مثلاً ما هي إلا مصنفات أقيمت لتحليل النصوص المنجزة، لإثبات إعجازها لا إنتاجها كما يدعي بليث، وجاء محمد بركات أبو علي ليردد ما قاله بليث، لكنه أساء من حيث يريد الإصلاح، فأطلق على البلاغة القديمة بعلومها الثلاثة

---

(104) العسكري، أبو هلال، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل، الهيئة المصرية، القاهرة، 1952، ط1، ص6.

(105) القزويني، جلال الدين الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة شرحه وعلق عليه محمد خفاجي، مطبعة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1984، ص9.

(106) بليث، هنريش، البلاغة الاسلوبية، ترجمة وتعليق محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999، ط1، ص3.

اسم البلاغة (القاعدية) نسبة إلى قواعد النحويين وتقسيماتهم(107)، واعتقد أن هـذه التسمية لا تضيف جديدا جيدا، بل قد تقود إلى تفسير خاطئ إذا ربط هذا المصطلح بالمفهوم المعجمي الذي يعني الأساس والأصل(108). فهو بهذا يجعل التعامـل مـع البلاغة أصلاً لا فرعاً وهي ليست كذلك بل اعتاد ربط البلاغة بمعـاني النحـو لا بقواعد النحو والفرق ما بين المصطلحين شاسع وكبير، فالبلاغيون قد يلتقـون مـع النحويين في المنبع (اللغة) إلا أنهم يختلفون في السبيل الذي ينتهجون، فالاتجاهـات المختلفة قد تلتقي في الأساس لكنها تختلف في السبيل، كما أن فكرة تقنـين النظـر الفني التي نلمحها لدى بليث وبركات لا يمكن أن تعمم على البلاغة المعيارية بكـل مراحلها ونظرة عاجلة في صنيع الزمخشري وخاصة في دراسته للتقديم والتـأخير في سورة الإسراء(109) وكشفة للجوانب الفنية القابعة وراء تلك الظاهرة الأسـلوبية تثبت ذلك.

لكن إفادة الحداثيين العرب من أفق العالم المفتوح -الذي يشكل ميسم العـالم الراهن- لم يقف عند حد المفهوم بل تجاوز إلى تحقير منجزات البلاغة المعياريـة، ووصفها بالجمود، والقصور يقول محمد عبدالمطلب: "إن البلاغة القديمة وقفت عند حدود التعبير ووضع مسمياته وتطبيقها وتجمدت عند هذه الخطـوة، ولـم تحـاول الوصول إلى بحث العمل الأدبي الكامل"(110) لذا يرى أن الأسلوبية الحديثـة بـديل ناجح عنها.

---

(107) أبو علي، محمد بركات، البلاغة في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، دار وائل للنـشر، عمان، ط1، 2003، ص30.

(108) ابن منظور، لسان اللسان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ج2، ص400.

(109) الزمخشري، جاد ا محمود، الكشاف، 696/2.

(110) عبدالمطلب، محمد، البلاغة الأسلوبية، الشركة المصرية للنشر، القـاهرة، 1994، ط2، ص259.

وفي هذا نقول إن الأسلوبية الحديثة لم يقدر لها الظهور لولا تلـك المعـايير الجامدة على حد قول عبدالمطلب، فمفهوم البلاغة "مطابقة الكلام لمقتـضى الحـال" يلتقي مع وجهة نظر الدرس الأسلوبي الذي يعرف بـ (الموقف) وأن نمـط القـول يتأثر به(111).

كما أن البلاغة العربية بفروعها علم المعاني الذي يتعلق بالإفادة وعلم البيان الذي يتعلق بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، يذكرنا بفرضية منهجية تنطلق منه النظريات الأسلوبية ومؤداها أن المدلول الواحد يمكن بثه بوساطة دوال مختلفة وهو ما يؤول إلى القول بتعدد الأشكال التعبيرية على الـرغم مـن وحدانيـة الـصورة الذهنية(112).

أما إغفال البنية العضوية كما يقول مطلوب فنظرة في إعجاز القرآن للباقلاني ومعالجته لقصيدتي امرئ القيس والبحتري تجعلنا لا نـستطيع تعمـيم القـول وإذا تجاوزنا هذا نجد عبدالمطلب في الوقت الذي يعيب على القدماء ذلك.

يقوم هو بمتابعة ظاهرة "التكرار الجناسي"(113) من خـلال مجموعـة مـن الأبيات المفردة، وفي هذا تناقض واتساع للفجوة ما بين التنظير والتطبيق -إن سمح لي بهذا- لكننا نقول: إن الأسلوبية الحديثة تناولت طروحـات البلاغـة المعياريـة بمنهجية أكثر تطوراً وأكثر اتساعاً وشمولاً وهذا شيء طبيعـي تفرضـه طبيعـة

---

(111) عياد، شكري، مدخل إلى علم الأسلوبية، دار العلوم للطباعة، الريـاض، 1982، ط1، ص30؛ وانظر أيضاً: عيد، رجاء، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، دار المعـارف، الإسكندرية، ط2، د.ت، ص95؛ الشايب، أحمد، الأسـلوب دراسـة بلاغيـة، مكتبـة النهضة، القاهرة 1966، ط6؛ جيرو، بيير، الأسلوب والأسلوبية، ترجمة منذر عيـاش، مركز الإنهاء القومي، لبنان، ط1، ص120؛ عبدالجواد، إبراهيم، الاتجاهات الأسـلوبية في النقد العربي الحديث، وزارة الثقافة، عمان، 1996، ط1، ص111؛ هاف، كراهام، الأسلوب والأسلوبية، ترجمة كاظم سعد الدين، دار آفاق عربية، بغداد، 1985، ص11.

(112) المسدي، عبدالسلام، المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خـلال البيـان والتبيـين، حوليات الجامعة التونسية، 1976، ط1، ص134-156.

(113) عبدالمطلب, محمد, النمط التكراري في قصيدة المديح دراسة أسلوبية, مجلـة فـصول، مجلد3، عدد2, 1983، ص49.

الاختلاف في الظروف والأحول وتصبح البلاغة بناء على هذا عملية فكرية تولد علاقة تداولية بين قطبي التواصل، أو تولد طابعاً ديالوجياً يخرج بـالرؤى النصية الكامنة أو بالإسرار الجمالية وفق معاييرها المختلفة والمندرجة بما يلي(114):

1. ما يحترز به عن الخطأ (علم المعاني).
2. ما يحترز به عن التعقيد المعنوي (علم البيان).
3. ما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحة (علم البديع).

2.2 علم المعاني:

وهو أحد المباحث البلاغية الذي يتصل بالجملة وما يطرأ عليها من عدول عن الأصل وخروج عن المعيار، ويرى أحمد درويش أن الزمخشري أول من ابتكر هذا المصطلح، فيقول: "مصطلح علم المعاني ابتكره الزمخشري وعرفة السكاكي. ودرس مسائلة من قبلها عبدالقاهر"(115).

ودرويش يستسقي هذه المعلومة دون إثبات لها من شوقي ضيف الذي يرى إن "الزمخشري مبتكر مصطلح علم المعاني من خلال قوله "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان"(116)، لكن استخدام الزمخشري لهذا المصطلح يلفه الغموض، فهو يجعل الالتفات مثلاً مندرجاً تحت باب البيان، ويطلق على البلاغة كلها البديع، وأحياناً البيان، ومصطلح علم المعاني عنده أقرب إلى حيز التفسير منه إلى حيز البلاغة، وعلة ذلك أن هذا المصطلح ورد في الكشاف (ولم يكن يبحث في البلاغة حينما ألف الكشاف وإنما كان يفسر القرآن الكريم، ويوضح ما فيه من معاني سامية، ومن

---

(114) القزويني, الإيضاح في علوم البلاغة، 11/9.

(115) درويش، أحمد, دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث, دار غريب للنشر، القاهرة، 1998، ط1, ص78.

(116) ضيف, شوقي, البلاغة تطور وتاريخ, ص22، ص270، ص288.

روعة، وجمال وتأثير في النفوس، وكان يستخدم مـصطلحات البلاغـة وفنونهـا للوصول إلى هذه الغاية)(117).

ومن لم يلتفت إلى هذا يصاب بالوهم والإيهام في نسبة علم المعاني بطابعـه البلاغي إلى الزمخشري ،وعرفه السكاكي بقوله "تتبع خواص تراكيب الكـلام فـي الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحرز بالوقوف عليها عن الخطأ فـي تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"(118).

ويأتي القزويني ليحصر علم المعاني في ثمانية أبواب(119) هي:

الأول: أحوال الإسناد الخبري.

الثاني: أحوال المسند إليه.

الثالث: أحوال المسند.

الرابع: أحوال متعلقات الفصل.

الخامس: القصر.

السادس: الإنشاء.

السابع: الفصل والوصل.

الثامن: الإيجاز والإطناب.

وسنحاول رصد مدى اهتمام العسقلاني في فتح الباري لهذه المعايير وما هي آليته أو منهجيته في الرصد والولوج إلى تلك الطروحات وسنبدأ بالأكثر حضورا:

---

(117) مطلوب، أحمد, البلاغة العربية،السابق، ص72. ويقف إلى جانب مطلـوب فـي رأيـة السابق دون إشارة إلى مطلوب, عبدالفتاح، لاشين، في كتابة البيان في ضـوء أسـاليب القرآن، دار المعارف, مصر, 1984, ط1, ص12-13.

(118) السكاكي: أبو يعقوب محمد بن علي: مفتاح العلوم: مطبعة التقدم العلمية, مصر 1438، ص77

(119) القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة، ص284.

3.2 الحذف والذكر:

يعد الحذف من أبرز الوسائل الشعرية التي يستند إليها المبدع من أجل إثراء نصه وقد أوجز الجرجاني قيمته الفنية بقوله:

"هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، وإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عند الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك انطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"(120).

ويلتقي بوجراند مع مضمون قول الجرجاني السابق إذ يطلق على ظاهرة الحذف "المبنى العدمي" ويجعلها من أهم مقومات نظريات السياق، ويشير في مصطلحه السابق إلى عناصر غائبة عن النص وحقها الحضور في المبنى ،وهذا الغياب هو ما يشعل وتيرة التشتت والانقطاع(121) التي تدفع بالمتلقي للاشتراك والتفاعل بدوره التأويلي، وجعل كوهن الحذف من أوسع أبواب الانزياح التركيبي وربط ما بينه و بين الانزياح الدلالي ورأى أنه "يقف دون الدرجة الحرجة"(122).

ويتوسع العسقلاني في إطلاق المصطلحات البلاغية فيطلق على الحذف مسميات أخرى منها الإضمار(123) والاختصار(124) والإطواء(125) وهو بهذا يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً من أنه من أتباع المدرسة الأدبية، التي لا تهتم بضبط المصطلحات البلاغية ضبطاً محكماً، فمن المعروف مثلا أن الحذف وسيلة من وسائل الاختصار لكن العسقلاني لا يأخذ بهذا الحد ويجعل الأمور معومة.

---

(120) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز قراءة وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص170.

(121) بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة 1998، ط1، ص340.

(122) كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص179.

(123) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص99، ج2/50/4/22618/5171.

(124) المرجع نفسه، ج9، ص491، ج10، ص53.

(125) المرجع نفسه، ج12، ص78.

ويتصل هذا المبحث بظاهرة **الإيجـاز** التي تعرف بأنها "وضع المعاني الكثير في ألفاظ اقل منها"(126).

وقد أبرز الجاحظ أهميته حين قال : "إن قدرتم أن تجعلوا كتـبكم توقيعـات فافعلوا"(127).

والإيجاز على ضربين: إيجاز الحذف ،ويعد هذا اللون علامة بـارزة اتكـأ عليها العسقلاني في شرحه، واستغله في نوعيه إلا في القليـل النـادر، كالايجـاز الحاصل في قول النبي ـ صلى ا عليه وسلم ـ: "اسلم تسلم"(128).

1.3.2 حذف المفردات ويندرج تحته ما يلي:

أ. حذف الحروف: وفيه يشير العسقلاني إلى حذف حروف القسم والنـداء والجـر والعطف ومثاله قول العسقلاني في قول النبي "أن أبا هريرة كان يقول: ا الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبـدي علـى الأرض مـن الجـوع.....يقـول العسقلاني (قول ا الذي لا اله إلا هو) كذا للأكثر بحذف حرف الجر من القسم وهو في روايتنا بالخفض، وحكى بعضهم جواز النصب وقال ابن التين روينـاه بالنصب وقال ابن جني: إذا حذف حرف القسم نصب الاسم بعده بتقدير الفعـل ومن العرب من يجر اسم ا وحده مع حذف الجر فيقول: "وا لأقومن وذلـك لكثرة ما يستعملونه"(129)

ويقول في موطن آخر في جملة (لبيك رسول ا) يقول:" كذا فيه بحذف أداة النداء"(130) حذف أداة الاستفهام: عن عدي بن حاتم قال: سالت النبي صلى ا علية وسلم قال إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل.

---

(126) العسقلاني، فتح الباري، ج22، ص100.

(127) الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هـارون، مطبعـة البـابي الحلبي، مصر، 1968، ط1، ج1، ص86.

(128) المرجع نفسه،ج1، ص37.

(129) العسقلاني، فتح الباري، ج11، ص24.

(130) المرجع نفسه، ج11، ص241، وانظر أيضاً، ج9، ص484.

يقول العسقلاني "قوله: سألت أي عن أكل صيد الكلاب، وحذف لفظ السؤال، اكتفاء بدلالة الجواب علية"(131).

ب. حذف المضاف: وقد تجسد ذلك في شرح العسقلاني الذي يقول فيه: "قوله فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا..... هو على حذف المضاف أي سفك دماءكم، وأخذ أموالكم، وثلب أعراضكم، والعـرض بكـسر العين موضع المدح، والذم من الإنسان سواء كان في نفسه، أو سلفه"(132)

ظهر حذف المضاف مرارا في النموذج السابق ،ومن ينعم النظر فـي القـول النبوي يجده معبرا عن موقف النبي محمد صلى ا عليه وسلم ،الذي يثور فيه على الماضي ،وعلى تقاليد الجاهلية،والفساد الأخلاقي والأمني الذي كانت تعيشه الأمـة، قبل مجيء الإسلام، والنبي يبني كلامه السابق على تصور مثـالي ماضـوي،حيث الواقع المدمر، والدم المسفوك، وضياع الأموال،وثلب الأعراض لكن حديثه جاء في قلب مكة بعد الفتح (كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا) فجاء حـذف تقاليد الماضي على لسان سيدنا محمد ليكرس نفي الإسلام لذلك الـضياع والواقـع المتردي لفظياً لمعايير لازمه في الجاهلية والإسلام (الدماء،والأموال،والأعراض).

ومثاله أيضاً شرح العسقلاني في :"قوله تعالى الحج أشـهر معلومـات قـال العلماء: تقدير قوله الحج أشهر معلومات أي الحج حج أشهر معلومـات أو أشـهر الحج أو وقت الحج أشهر معلومات، فحـذف المـضاف، وأقـيم المـضاف إليـه مقامه"(133).

ج. حذف المضاف إليه: وقد تجلى ذلك في شرح العسقلاني جملة (ثم أي) من قول النبي صلى ا عليه وسلم "أي العمل أحب إلى ا ؟ قال الصلاة على وقتها قال ثم أي؟ قال بر الوالدين..... يقول العسقلاني: قوله (ثم أي) قيل: إنه غير منون؛ لأنه غير موقوف عليه في الكلام، والسائل ينتظر الجواب، والتنوين لا يوقـف عليه فتنوينه ووصله بما بعده خطأ، فيوقف عليه وقفة لطيفة ،ثم يؤتى بما بعـده

---

(131) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص145.

(132) المرجع نفسه، ج3، ص492، وانظر أيضاً، ج2، ص9، ج5، ص238.

(133) المرجع نفسه، ج3، ص361.

قاله الفاكهاني، وحكى ابن الجوزي عن ابن الخشاب الجزم بتنوينه، لأنه معرف غير مضاف، وتعقب بأنه مضاف تقديرا، والمضاف إليه محذوف لفظا والتقدير: ثم أي العمل أحب؟ يوقف عليه بلا تنوين"(134).

د. حذف المبتدأ: وقد تجلى ذلك في شرح العسقلاني لقول النبي "قالوا يا رسول ا ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسه بيده رجال امنوا با وصدقوا المرسلين" قوله رجال: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره وهم رجال، أي تلك المنازل منازل رجال آمنوا"(135). حينما ننعم النظر في هذا الموقع نجد حـذف المبتدأ، يقدم جمالية في النص، إذ إن كلمة رجال –الخبر- نكرة ولو أن القـول النبوي ذكر المسند إليه، وهو ضمير الغائبين هم لحقق للرجال تعريفا من خلال المبتدأ، وتكون دالة عندئذ على مجموعة معينه من الرجال، ولكنه أراد أن يجعل الدلالة شامله لكل طوائف الأمة المحمدية، ليس حكرا على فئـة دون أخـرى، لكنها تجمعهم صفات من آمن با وصدق المرسلين.

ومثاله قول النبي صلى ا عليه وسلم لجابر "ما يعجلك؟ قال: كنت حديث عهد بعرس فقال: أبكراً أم ثيباً؟ قلت ثيباً قال: أفلا جاريـه تلاعبهـا وتلاعبـك. يقـول العسقلاني" قولة أبكر أم ثيباً؟ قلت ثيباً "هو منصوب بفعل محذوف تقديره أتزوجـت وتزوجت، وكذا وقع في ثاني حديث الباب "فقلـت تزوجـت ثيبـاً" وفـي راويـة الكشمهيني في الوكالة من طريق وهي من كيسان عن جابر قال: أتزوجت؟ قلـت: نعم، قال: بكراً أم ثيباً؟ قلت: ثيباً. وفي المغازي عن قتيبة عن سفيان بن عمرو بـن دينارعن جابر بلفظ " هل نكحت يا جابر ؟ قلت: نعم، قال أبكرا أم ثيبا: ؟ قلـت: لا بل ثيبا ،ووقع عند أحمد عن سفيان في هذا الحديث "قلت: ثيب" وهو خبـر مبتـدأ محذوف تقديره التي تزوجتها ثيب"(136).

---

(134) العسقلاني، فتح الباري، ج2، ص85

(135) المرجع نفسه ، ج6، ص269.

(136) المرجع نفسه، ج9، ص105. وانظر: ج5، ص274, ج9، ص125, ج10، ص219, ج4، ص274, ج6، ص269, ج8، ص496, 135، ج9، ص219.

هـ. حذف الخبر: ويتضمن خبر المبتدأ و خبر كان وخبر إن... ومثاله قول النبـي صل ا عليه وسلم "وا ما من أحد أغير من ا أن يزني عبده أو تزني أمته" قوله: "وا ما من أحد من القسم للتأكيد الخبر وإن كان السامع غير شـاك فيـه وقوله "ما من أحد أغير "بالنصب على أنه الخبر وعلى إن ومن زائدة" ويجـوز فيه الرفع على لغة تميم أو "أغير" مخفوض صفة لأحد ولخبر محذوف تقـديره موجود"(137). جاء الخبر في النص السابق محـذوف ليتـرك للقـارئ تقـدير احتمالات لا حصر لها، وكلما ازددنا في جذب الاحتمـالات ،زادت الـصورة غموضا أمامنا.

هل كلمة أحد تشمل الجانبين العلوي والسفلي أم تقتصر على جانب دون آخر وعلى أشياء محددة من هذا العالم وذاك، فتتضافر عندئذ سمة الحذف القائمة علـى غياب المسند وحالة الغموض في التقدير، وللتأكد عندئذ غيرة ا المطلقـة التـي لا يمكن تخيلها ضمن حدود معينة.

ومن أمثلة أيضاً قول النبي صلى ا عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص عنـدما قال له: "... يا رسول ا أوصي بمالي كله؟ قال: إلا قلت: فالشطر، قال: لا. قلت: الثلث، قال: فالثلث، والثلث كثير، يقول العسقلاني: قولة "الثلث والثلث كثير" ينصب الأول على الإغراء أو بفعل مضمر نحو أعين الثلث وبالرفع على أنه خبـر مبتـدأ محذوف أو مبتدأ والخبر محذوف تقديره يكفيك الثلث أو الثلث كاف"(138).

و. حذف الصفة: قال عبدا رضي ا عنه "لقد أتاني اليوم رجل فسألني عن أمـر ما دريت ما أرد عليه فقال: أرأيت رجلاً مؤدياً نشيطاً يخرج مع أمرائنـا فـي المغازي: فيعزم علينا في أشياء لا نحصيها...يقول العسقلاني "قوله يخرج مـع أمرائنا كذا في الرواية بالنون من قوله يخرج وعلى هذا فالمراد بقولـه رجـلاً

---

(137) العسقلاني، فتح الباري، ج2، ص460. وانظر: ج1، ص16, ص436, ص498, ج2، ص460, ص462, ج3، ص220, ص466, ج5، ص214, ج6، ص259, ج7، ص59, ص38, ص252, ج8، ص135, ج11، ص147.

(138) المرجع نفسه، ج5، ص309.

أحدنا أو هو محذوف الصفة أي رجلاً منا وعلى هذا عول الكرماني لان السياق يقتضي إن يقول مع أمرائه"(139).

ز. حذف الموصوف: يتجلى هذا في تعليق العسقلاني على قوله تعـالى: "ضـعف الحياة وضعف الممات.. يقول قوله ضعف الحياة وضعف الممات.. عذاب الحياة وعذاب الممات، قال أبو عبيده في قوله (ضعف الحيـاة) مختـصر والتقـدير ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، وروى الطبري من طريق ابن أبي يخنع عندما حذف قوله (ضعف الحياة). قال عذابها (ضعف الممات) قال عذاب الآخرة. وعن طريق طلحة عن ابن عباس قال ضعف عذاب الدنيا والآخرة ومن طريق سعيد عن قتادة مثله وتوجيه ذلك إن عذاب النار يوصف بالضعف قـال لقوله تعالى "عذاباً ضعفاً في النار" أي عذاباً مضاعفاً. فكأن الأصـل لأذقنـاك عذاباً ضعفاً في الحياة ثم حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فهو كما لو قيل أليم الحياة مثلاً"(140).

ح. حذف جواب الشرط: كقول العسقلاني في شرحه لحديث اللقطة ".... ثم عرفها سنة، فإن جاء صاحبها، وإلا شانك بها" يقول العسقلاني "قولة ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا شانك بها فيه حذف تقديره: فإن جاء صاحبها فادها إليه، وإن لم يجيء فشأنك بها. فحذف من هذه الرواية جواب الـشرط الأول وشـرط إن الثانية والفاء من جوابها...."(141).

ويتجلى ذلك أيضا في شرحه للحديث النبوي : " ...... فلما أشرفت علـى المروة، فقالت : صه –تقصد نفسها – ثم تسمعت أيضا فقالت : قد أسمعت إن كـان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم " قوله إن كان عندك غواث "بفـتح أوله للأكثر وتخفيف الواو وآخره مثلثة ،وقيل أو ليس في الأصوات فقال بفتح أوله

---

(139) المرجع نفسه، ج6، ص98.

(140) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص336, ج8، ص100, ج8، ص139, ج9، ص421, 520, ج10، ص288, ج12، ص473.

(141) المرجع نفسه، 4- 71/5

غيره، وحكى ابن الاثيرضم أوله والمراد به على هذا المستغيث، وحكى ابن قرقول كسره: أيضا والضم رواية أبي ذر وجواب الشرط محذوف تقديره فأغثني"(142).

يشكل المقطع النصي السابق علامة بارزة، إذ يشير إلى مرحلة حاسمة، فـي تاريخ حياة السيدة هاجر وابنها إسماعيل، حيث تسيطر مشاعر الخوف والغـضب، وما سيحمله المستقبل في الأيام القادمة ،عندما تركها سيدنا إبراهيم في ذلك الوادي، وأصبح السراب ماء، فعندما رأت ذلك الملك، وجهات موقفه منها ،جسدت ذلك فـي حذف الفعل أغثني، فلو علمت يقينا بموقفه منها بوحي أو غيره، لـصرحت بـذلك، فتماثلت عندئذ لغة الصمت مع لغة الإفصاح.

ومنه أيضاً طلب الصحابة من الرسول صلى ا عليه وسلم وقولهم له "لـو عرست بنا" يقول العسقلاني منه "قولهم لو عرست بنا...." والتعريس نزول المسافر بغير إقامة واصله نزول آخر الليل لو محذوف تقديره لكان أسهل علينا"(143).

ومنه أيضاً: يقول النبي صلى ا عليه وسلم "مثلي ومثل الأنبياء كرجل يبني دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويصيحون ويقولون لولا موضع اللبنة" يقول العسقلاني "قوله موضع اللبنة (بالرفع على أنه مبتـدأ وخبـره محذوف أي لولا موضع اللبنة"(144).

ط. حذف الفعل: كقول العسقلاني "قوله وقال مجاهد قلت لابن عمـر الغـزو" هـو بالنصب على الإغراء والتقدير عليك الغزو أو علـى حـذف فعـل أي أريـد الغزو"(145). يتجلى جمالية حذف الفعل في قول مجاهد (الغزو) أي أريد الغزو، لأن الفعل دائما يحمل دلالات الحركة وعدم الثبوت ،ومـشاهد الغـزو تتطلـب عكس ذلك، فهي تريد الثبات في الموقف والالتزام في العمل والفكر

---

(142) المرجع نفسه، 6\328

(143) العسقلاني، فـتح البـاري، ج2، ص58. وانظـر: ج2، ص395, 406, 443, ج3، ص480, ج4، ص42, 157, 196, 262, ج6، 328، ج7، ص297.

(144) المرجع نفسه، ج6، ص466.

(145) المرجع نفسه، ج6، ص102. وانظـر: ج12، ص364, ج13، ص20, 364, ج11، ص121, 160, 173, 240, 370.

ي. حذف الفاعل: يقول العسقلاني "قوله باب حـرق الـدور و النخيـل أي التـي للمشركين كذا وقع في جميع النسخ "حرق" وضبطوه بفتح أوله وإسـكان الـراء وفيه نظر: لأنه لا يقال في المصدر حرق وإنما يقال تحريق وانحـراق؛ لأنـه رباعي فلعله كان حرق بتشديد الراء بلفظ الماضي، وهو المطابق للفظ الحديث، والفاعل محذوف تقديره النبي عليه السلام بفعله أو بإذنه"(146).

ك. حذف المفعول: كقول جابر "جاء رسول ا صلى ا عليه وسلم يعودني وانـأ مريض لا أعقل فتوضأ وصب علي من وضوئه "قولـه لا أعقـل أي لا افهـم وحذف مفعوله إشارة إلى عظم الحال أي لا أعقل شيئاً"(147). ويـدفعنا قـول الصحابي السابق " لا أعقل "، وحذف المفعول فيه، إلى البحث عن مرجع لهذا الشيء المغيب، الذي لا يعقل ، فهل هو لا يعقل واقع العالم من حوله ؟ أم واقع أسرته وبيته ؟ أم حقيقة مرضه؟ والحقيقة أن الحذف جعل لنا كل الاحتمـالات السابقة ممكنه، ليجسد من خلالها عظم حالته المرضية المجهدة، التـي أفقدتـه الإحساس بكل شيء.

ل. حذف جواب القسم: كقول العسقلاني "قوله فأخذ مواثيقهم على ذلك ففعلوا وربي ففعلوا، هو من القسم المحذوف جوابه ويحتمل إن يكون حكاية الميثاق الذي أخذه أي قال: قل لمن أوصاه قال وربي لأفعلن ذلك"(148).

م. حذف جواب الاستفهام: ويتضح هذا الحـذف مـن خـلال شـرحه للحـديث النبوي:"عن عبدا بن عمر قال :صلى بنا النبي صلى ا عليه وسلم العشاء في آخر حياته فلما تسلم قام فقال :أرايتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سـنة منهـا لا يبقى على الأرض منها أحد يقول العسقلاني "قوله أرايتكم" هو بفتح المثناه، لأنها ضمير المخاطب، والكاف ضمير شأن لا محل له من الإعراب ،والهمزة الأولى

---

(146) العسقلاني، فتح البـاري،ج6، ص126. وانظـر: ج7، ص153, ج9، ص40, ج10، ص82، ج14، ص341.

(147) المرجع نفـسه، ج1، ص171. وانظـر: ج1، ص484, 489, 491, ج4، ص422, ج5، ص171, ج7، ص330.

(148) المرجع نفسه، ج11، ص268. وانظر: ج6، ص307.

للاستفهام، والرؤية بمعنى العلم أو البصر والمعنى أعلمتم أو أبـصرتم ليلـتكم، وهي منصوبة المفعوليه، والجواب محذوف تقديره قالوا نعم...."(149).

ن. حذف اسم إن: يقول العسقلاني في وصف النبي لأعور الدجال وقوله "إن بـين عينية مكتوب كافر كذا للأكثر وللجمهور مكتوباً ولا أشكال فيه لأنه إما اسم إن وإما حال وتوجيه الأول أنه حذف اسم إن والجملة بعده مبتدأ وخبر في موضـع خبر إن والاسم محذوف إما ضمير الشأن أو يعود على الدجال"(150).

ف. حذف القول ومنه: قول العسقلاني(151) "قوله تضمن ا لمن خرج في سـبيله قائلاً: لا يخرجه إلا إيمان بي فيه التفات وإن فيه انتقالاً من ضمير الحضور إلى ضمير الغيبة وقال ابن مالك: فيه حذف القول والاكتفاء بالمقول وهو شائع شاسع سواء أكان حالا أو غير حال فمن الحال قولة تعالى (ويستغفرون للـذين امنـوا ربنا وسعت) أي قائلين ربنا وهذا مثله أي قائلا لا يخرجه الخ......."(152).

حذف القول وترك المقول في النص السابق، والإبقاء على المقول والدخول إليه مباشرة "ربنا وسعت كل شيء " جسد حالة البوح والقرب القلبي الذي يشعر به الإنسان في مخاطبته للخالق، وان هذا الإله لا تفصله عن الآخر حجب القمع بل هو مرحب للقول والدعاء والتوبة من أي شخص كان وفي أي زمان كان فالطرق معبدة إليه لا تتطلب الإذن في سلوكها أو حتى الإشعار بتوجيه القول إليه.

ق. حذف الجملة: لم يحدد العسقلاني هذا اللون من الحذف، بل اكتفى بالتعبير عنـه بقوله يوجد حذف أو هنا حذف،على الرغم من اهتمامه بالإشارة إليه. وحـذف الجمل نوعان:

1. حذف الجملة المفيدة.

---

(149) المرجع نفـسه، ج1، ص192. وانظـر: ج5، ص99, ج7، ص406, ج11، ص240.

(150) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص252، ج5، ص99، ج7، ص116، 406.

(151) المرجع نفسه، ج13، ص86.

(152) المرجـع نفـسه، ج6، ص706. وانظـر: ج1، ص378، ج2، ص296 ....، ج12، ص364.

2. حذف الجمل غير المفيدة.

ويطلق تدوروف على النص الذي يحتوي على هذا اللون البلاغـي بـالنص المجمل (summary) أو بظاهرة التلخيص (resume)،وهو سـرد أحـدث دون تفصيل للأقوال والأفعال(153) ومن أمثلة ذلك: "أرسلت ابنة النبي صـلى ا علية وسلم إليه: أن ابناً لي قد قبض سل يقرئ السلام يقول: إن ـمـا أخـذ ومـا أعطى وكل عنده بأجل مسمى ولتصبر، ولتحتسب، فأرسـلت إليـة، تقـسم عليهـا ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابـت، ويحيى بن حسان، ورجال فرفع إلى رسول ا الصغير، ونفسه تتعقـع.... يقـول العسقلاني :وفي هذا السياق حذف التقدير فمشوا إلى أن وصلوا إلى بيتها فاستأذنوا، فأذن لهم فدخلوا فرفع إليه الصبي"(154).

وهذا الحذف من قبل حذف الجمل المفيدة ومثاله أيضاً أن رجلاً مـن أهـل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له الست فيما شئت؟ قال بلى ولكن أحب أن ازرع قال فبذر" يقول العسقلاني قوله فبذر أي ألقى البذر فنبت في الحال وفـي الـسياق حذف تقديره فأذن له فبذر"(155).

2.3.2 منهجية العسقلاني في الحذف:

لقي أسلوب الحذف في فتح الباري عناية كبيرة، لدرجة تدفعنا إلى القول انـه من أكثر الأساليب البلاغية التي استعان بها العسقلاني في شرحه لكن هذا الإغـراق الأسلوبي في الحذف اصطبغ بالاضطراب ويتجلى ذلك من خلال ما يلي:

---

(153) تدوروف، تزفيتيان، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجـاء سـلامة، دار توبقـال للنشر، الدار البيضاء، 1990: ط2، ص49.

(154) العسقلاني، فـتح البـاري، ج3، ص137، ج5، ص24، 15. وانظـر: ج4، ص23، 215، 383، ج6، ص106، 300، 331، ج7، ص59، 89، 113، 400، 76، ج9، ص91، 262، 276، ج10، ص115، ج11، ص83، 154 209، ج12، 78، ج13، ص149، 282، 408، 411، 414.

(155) المرجع نفسه، ج6، ص82.

أنه على الرغم من كثرة وقوفه على بيان مواطن الحذف في الشرح إلا أنه لم يكشف في أغلب هذه الأمثلة عن سر هذا الحذف، وإنما اكتفى ببيان موطن الحـذف وما هو الشيء المحذوف. ويكمن السبب في تقديرنا إلى أنه يجري في هـذا علـى عادة الشراح الذين سبقوه كابن بطال مثلاً -وهو المنبع الأول الـذي يـستقى منـه العسقلاني- إذ يسير في شرحه وإشارته إلى الحذف على منوال العسقلاني مكتفيـاً ببيان الحذف والشيء المحذوف كما أن اهتمام العسقلاني بالجانب الفقهي والشرعي في شرحه عامل آخر لذلك فمواطن الإشارة إلى السر الكامن وراء الحذف في شرح العسقلاني لم تتجاوز الخمسة والثلاثين موطناً، على الرغم من متابعـة العـسقلاني البلاغية لدوافع الحذف يشهد لذلك قوله في المجلد العاشر "فإن علماء العربية قـالوا يحذف الفاعل إما للعلم به أو للجهل به وإذا تخـوف منـه أو عليـه أو لـشرفه أو لحقارته أو لإقامة وزن"(156) وهذا النص مقتبس اقتباساً كاملاً من مفتـاح العلـوم للسكاكي وكرر لدى القزويني في الإيضاح(157) واكتفى العسقلاني بالإشارة إليهـا بقوله علماء العربية دون قيد أو تحديد.

وتكمن تلك الدوافع بما يلي:

أ. **إرادة التعميم:** يقول العسقلاني: في الحديث النبوي "إذا أنفق المسلم نفقة على أهله –وهو يحتسبها– كانت له صدقة.. إن حذف المقدار من قوله (إذا انفـق)جـاء لإرادة التعميم، حيث يشمل الكثير والقليل"(158) ومنه أيضاً قـول العـسقلاني: "حذف المفعول من قوله (إذا حدث كذب) يدل على العموم أي إذا حدث في كـل شيء كذب فيه"(159).

ب. **لدلالة السياق عليه:** وجاءت الإشارة إليه في قول العسقلاني :" (ما منعـك أن لا تسجد) إن في هذا الكلام حذفا تقديره ما منعك من السجود وحملك علـى ألا

---

(156) العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص82.

(157) السكاكي، مفتاح العلوم ص84؛ القزويني، الإيضاح، ص83.

(158) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص1250.

(159) المرجع نفسه، ج1، 85.361. وانظر أيضا 519/171.11/368.5/2

تسجد؟ قال: وإنما حذفت لدلالة السياق عليه" (160) ومنه أيضا قول العسقلاني في الحديث النبوي:" من صلى صلاتنا ....ذلك المسلم الذي له ذمة ا وذمة رسوله، فلا تخفروا ا في ذمته... قوله فلا تخفروا ا في ذمته أي ولا رسوله،وحذف لدلالة السياق عليه"(161)

ج. **للعلم به:** وتتمثل الإشارة لهذا الغرض في قول العسقلاني:" فلما مسحوا الركن حلوا، فيه حذف تقديره فلما مسحوا الركن، وأتموا طوافهم ،وسعيهم ، وحلقوا، وحلوا وحذفت هذه المقدرات للعلم بها لظهورها"(162).

وفي قوله:" من أجل ذلك وعد ا الجنة ... يقول كذا فيه يحذف أحد المفعولين للعلم به "(163).

د. **للاختصار:** وتجلى تحديد هذا الغرض في قوله: "..التمسوها في العشر الأواخر...فإضمار المفعول والمراد به ليلة القدر – وإنما وقع في هذه الرواية اختصارا" (164).

وفي قوله :" باب قدركم يعطى من الزكاة والصدقة....حذف مفعول يعطى اختصارا لكونهم ثمانية أصناف"(165).

هـ. **مراعاة للنظم:** ويتمثل هذا الغرض في شرحه لقول النبي – صلى ا عليه وسلم - :" ...قوله الحمد رب العالمين السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.....، والقرآن العظيم محذوف الخبر والتقدير ما بعد الفاتحة مثلا فيكون

---

(160) المرجع نفسه، 442/1.

(161) العسقلاني، فتح الباري، ج254/8. انظر: ج1، ص2، ص489، ج7، ص24، ج8، ص252، ص242، 431، ج9، ص134، ج11، ص254، ص335، ج14، ص491.

(162) المرجع نفسه، 411/4.

(163) المرجع نفسه، 341/13 وانظر: ج1، ص531، ج3، ص484، ج4، ص147، ج11، ص435، ج5، ص411، ج10، ص382، ج9، ص679.

(164) المرجع نفسه، 226/4.

(165) المرجع نفسه، ج3، ص267.

وصف الفاتحة بقوله: هي السبع المثاني، ثم عطف قوله والقرآن العظيم أي مـا زاد على الفاتحة، وذكر ذلك رعاية لنظم الآية،ويكون التقدير والقرآن العظيم هو الذي أوتيته زيادة على الفاتحة"(166).

و. **للإشارة إلى عظم الحال والخوف منها:** ويتحقق هذا الغرض في شرحه لمقولـة جابر، عندما زاره النبي وهو مريض: "قوله لا أعقل أي لا، وحـذف مفعولـه إشارة إلى عظم الحال أي لا أعقل شيئاً"(167).

2. الإغفال الكلي للحذف أو الاكتفاء بقوله :"وقع حذف"، أو "هنا حذف " دون تدقيق وتفصيل، ومثال ذلك إغفال العسقلاني للحذف، في قوله تعالى: "ما ودعك ربـك وما قلى"(168).

والأصل إن يقال "ما قلاك"، لكنها حذفت لرعاية الفاصلة القرآنية (169).

وإغفاله للحذف الوارد في قول النبي صلى ا عليه وسـلم: " فلمـا توضـأ عثمان قال: ألا أحدثكم حديثا لولا أية ما حدثتكموه ؟ سمعت النبي صـلى ا عليـه وسلم يقول:لا يتوضأ رجل يحسن وضوءه ويصلي الصلاة، إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة حتى يصليها " (170) وبالعودة إلى الشروح الأخرى، وتحديدا إلى العيني في عمدة القارئ، في هذا الحديث ،نجده يحدد موطن الحذف ،وسره، يقول: "قوله فلمـا توضأ عطف على محذوف تقديره عن حمدان انه رأى عثمان دعا بإناء فافرغ على كفيه إلى إن قال: ثم غسل رجليه إلى الكعبين فلما توضأ، قال: ......قوله لأحدثنكم جواب قسم محذوف ،قوله: حدثنا: نصب على أنه مفعول ثان لقولـه (لأحـدثنكم)

---

(166) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص135.

(167) المرجع نفسه، ج1، ص271. وانظر أيضاً: ج3، ص146.

(168) المرجع نفسه، ج8، ص614، 615.

(169) الزمخشري، الكشاف، ج4، ص231.

(170) العسقلاني ، فتح الباري ، ج1،ص236

قوله: لولا الربط امتناع الثانية لوجود الأولى.....وقوله: آية مبتدأ وخبره محـذوف، وحذفه ها هنا واجب كما علم في موضعه، والتقدير لولا آية ثابتة في القرآن"(171).

ومنه أيضا إغفاله للحذف الوارد في قول النبي صلى ا عليه وسلم " دخـل رجل على جمل فأناخه في المسجد وقوله في المسجد أي في رحبة المسجد وحـذفها للعلم بها"(172).

ومن قبيل التفاته السريع قوله: " الذين يؤلون من نـسائهم ....فيـه حـذف تقديره يقسمون على الامتناع من نسائهم، والإيلاء مشتق من الآلية بالتـشديد وهـي اليمين" (173) وهو هنا من قبيل حذف الفعل،و حذف للعلم به.

ومن أمثلته أيضا: " فتعرضت له امرأة فكلمته، فأبى فأتت راعيا، فأمكنته من نفسها فولدت غلاما، قوله ولدت غلاما... فيه حذف تقديره، فحملت حتى انقـضت أيامها فولدت كذا، وقوله فقالت من جريج؟ فيه حذف تقديره فسألت ممن هذا؟ فقالت: من جريج"(174)، وهو لم يصرح بالشيء المحذوف، ولا بالسر الكـامن وراء ذلـك الحذف، وهو في الموطن الأول، من قبيل حذف الجملة، وفي الثـاني حـذف لأداة السؤال، وإن سمح لنا بتأويل الحذف السابق قلنا: إن مثل تلك التفاصيل ماكثة فـي الذاكرة الإنسانية، فالولادة لا بد أن يسبقها حمل، فذكرها لا ضرورة له في السياق، للعلم به.

3. الاختلاف في الشيء المحذوف، وطرح العديد مـن الآراء فيـه، دون تـرجيح أحيانا: ويتمثل هذا في قوله: " لك الحمد ربنا، قوله ربنا بالرفع على إنـه خبـر مبتدأ محذوف، أي هو ربنا، أو على إنه، مبتدأ خبره مقدم، ويجوز النصب على

---

(171) العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، صححه عبدا محمود محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3، ص18.

(172) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج2، ص31.

(173) المرجع نفسه، ج9، ص364.

(174) العسقلاني، فتح الباري، ج6، 399. وانظر أيضاً: ج6، ص300, ص331, ص356، ص399, ج7، ص107، ص116, ص153، ص257, ص552، ج9، ص368، ج10، ص103, ص115, ج11، ص475.

المدح، أو الاختصاص، أو إضمار أعني، قال ابن التين :ويجوز الجر على أنـه بدل من الضمير في عنه .وقال غيره :على البدل من الاسم في قوله " الحمد " وقال ابن الجوزي: ربنا بالنصب على النداء، مـع حـذف أداة النـداء، قـال الكرماني: يجب رفع غير ونصبه ورفع ربنا ونصبه"(175).

ويقول في موطن آخر وفي قول عائشة رضي ا عنها "كراهيـة المـريض للدواء" "قوله كراهية المريض قال عياض: ضبطناه بالرفع أي هذا منـه كراهيـة، وقال أبو البقاء: هو خبر مبتدأ محذوف، أي هذا الامتناع كراهية ،ويحتمل النـصب على انه مقول له ،أي نهانا كراهية للدواء، ويحتمل أن يكون مـصدرا أي كرهـه كراهية الدواء"(176).

وهو يبقى يعرض هذه الآراء كما أسلفنا دون أن يمتلك آلية لترجيح هذا على ذاك.

4.2 إيجاز القصر:

جاءت محاولة الإشارة إلى هذا اللون البلاغي على يد اللغويين الأوائل، لكن هذه المحاولات المبكرة على ما يبدو لم تكتسب سـمات مميـزة، ومحـددة علـى المستويين المنهجي والمعرفي، لذلك يعد عبد القاهر الجرجاني الصانع الأول لهـذا اللون البلاغي، "إن المعالجة الموسعة والنابعة من منطلق فكري معين هـي التـي نجدها عند عبد القاهر فدراسته لدلاله النفي والاستثناء في الأسلوب، ودلالة إنما، وما قد يكون بين كلا النوعين من الأساليب ،من تشابه واختلاف، كل ذلك كان في إطار نظريته العامة، في (النظم) التي جاءت تطبيقاتها دراسة تفصيلية لخصائص التعبير في العربية، ودلالاتها في شتى المواقع(177).

---

(175) العسقلاني، فتح الباري، ج9، ص495.

(176) المرجع نفـسه، ج8، ص125. وانظـر: ج3، ص59, ج7، ص187, ج10، ص288.

(177) السيد، شفيع، البحث البلاغي عند العـرب، دار الفكـر, مـصر، 1996, ط2، ص187.

والقصر لدى الجرجاني"تخصيص أمر بـآخر بطريـق مخـصوص"(178)، وتتمثل العلاقة ما بينه وبين الإيجاز، في أن جمله القصر تقوم في مقام جملتين،فقولنا مثلا : (ماخاتم الرسل إلا محمد) تعادل قول: خاتم الرسل محمد، ولا رسول بعده.

ولم تثر ظاهرة القصر حفيظة العسقلاني البلاغية،فلا نجد لها ذكرا في كتابه فتح الباري إلا في القليل النادر، لكنه يتوقف لدى أساليب القصر، مـن اسـتثناء، ونفي مثلا ،موضحا نوع الاستثناء، وأطراف الاستثناء، ولعل السبب يكمن فـي أن مثل هذه، تحتاج إلى الغوص في فقه المفردات، وعلم الجدل، وهو من اتباع المدرسة الأدبية واستراتيجيتها تخالف المعايير السابقة.

ولقناعتنا بأن الأدب حراك فني ذوقي لا صاحب نزعه حسابية صارمة، تقتل الأدب ،وتضر بالمتذوقين، فلن نجري وراء التقسيمات العقلية التي تعج بهـا كتـب البلاغة، وتتضارب بها الآراء، وتتناقض، ولعل في نص القزويني التالي ما يؤيد ما ذهبنا إليه إذ يقول: القصر نوعان: "القصر حقيقي وغير الحقيقي وكل واحد منهمـا ضربان: قصر الموصوف على الصفة، وقصر الصفة على الموصـوف،... والأول من الحقيقي كقولك –ما زيد إلا كاتب - إذا أردت أنه لا يتصف بصفة غير الكناية، وهذا لا يكاد يوجد في الكلام ،لأنه ما من متصور إلا وتكون لـه صـفات تتعـذر الإحاطة بها أو تتعسر، والثاني منه كثير كقولنا ...ما في الـدار إلا زيـد والفـرق بينهما ظاهر، فإن الموصوف في الأول لا يمتنع أن يـشاركه غيـره فـي الـصفة المذكورة فينزل منزلة المعدوم، والأول من غير الحقيقي تخصيص أمر بصفة دون أخرى، أو مكان أخر، والثاني منه تخصيص صفة بأمر دون آخر أو مكـان دون آخر، فكل واحد منهما ضربان، والمخاطب بالأول من ضربي كل –أعني اتصاف ذاك الأمربتلك الصفة ،وغيرها جميعاً في الأول، واتصاف ذلك الأمر وغيره جميعا بتلك الصفة في الثاني، فالمخاطب بقولنا – ما زيد إلا كاتب- من يعتقـد أن زيـدا كاتب وشاعر، وبقولنا – ما شاعر إلا زيد- من يعتقد إن زيدا شاعر لكن يـدعى إن عمرا ايضا شاعر وهذا يسمى (قصر إفراد)،لقطعه الشركة بين الصنفين في الثبوت ،و بين الموصوف، وغيره من الاتصاف بالصفة.والمخاطب الثاني من ضربي كـل

---

(178) الجرجاني, دلائل الإعجاز, ص41.

اعني تخصيص أمر بصفة مكان أخرى، وتخصيص صفه بأمر مكان أخر-إما من يعتقد العكس، أي اتصاف ذلك الأمر بغير تلك الصفة عوضا عنها في الأول، وإتصاف غير ذلك الأمر بتلك الصفة عوضا عنه في الثاني، وهذا يسمي(قصر القلب) لقلبه حكم السامع، وإما من تساوى الأمر أن عنده، أي اتصاف ذلك الأمر بتلك الصفة واتصافه بغيرها في الأول، واتصافه بها واتصاف غيره بها في الثاني وهذا يسمى (قصر التعيين) فالمخاطب بقولنا-ما زيد إلا قائما - من يعتقد أن زيدا قاع أو قائم، أو يعلم أنه إما قاعد أو قائم ولا يعلم أنه بماذا يتصف منهما يعنيه ،وبقولنا -ما قائم إلا زيد- من يعتقد أن عمرا قائم لا زيدا، أو يعلم أن القائم أحدهما دون كل واحد منهما، لكن لا يعلم من هو منهما بعينه"(179).

فالعبارة الواحدة وفق رأي القزويني السابق قد تكون (قصر إفراد أو قلب أو تعيين) لكن بمراعاة حالة المخاطب، وهو موطن اللبس والتناقض الحاصل في مواقف البلاغيين. لذا فإنني سأقتصر فقط على الإشارة إلى طرق القصر المجمع عليها من قبل جمهور البلاغيين ودواعي تلك الطرق:

1.4.2 طرق القصر:

تأتي طرق القصر في اتجاهين أو طريقتين:

1. طريق لفظي لغوي ويتمثل بما يلي:

أ. النفي والاستثناء: يعد النفي والاستثناء من أشهر طرق القصر، بل هو الطريق الأم، ويستخدم هذا اللون البلاغي لأمر ينكره المخاطب، ويشك فيه، فإذا قلت" ما هو إلا مصيب، أو ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يعتقد أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصا من بعيد، فقلت: ما هو إلا زيد، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم انه ليس زيد، وأنه إنسان آخر، ويجب في الإنكار أن يكون كذلك"(180).

---

(179) القزويني، الإيضاح، ص71.

(180) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص127.

ولأسلوب القصر بالنفي والاستثناء حروف كثيرة، تسبق أداة الحـصر (إلا) ولكل من هذه الحروف خصوصيتها، التي تميزها في التركيب عن الأخرى، وفي ما يلي نحاول عرض هذا الأسلوب بأشكاله المختلفة.

أولا: الحصر بـ (ما- إلا): ومن أمثلته قوله :"والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنـة، فكبرنـا، فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، ،فقال: ما أنتم في النـاس إلا كالـشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثورأسود " (181).

وقول عائشة رضي ا عنها ما ألفاه السحر عندي إلا نائمـا تعنـي النبـي صلى ا عليه وسلم...يقول العسقلاني:"قوله ما ألفاه أي وجده السحر وهو مرفـوع بأنه فاعله"(182). ونلاحظ انه لم يتطرق لأسلوب القـصر الـوارد فـي الأحاديـث السابقة، وهو من قبيل الاستثناء الحقيقي.

ثانيا: الحصر بـ (لا – إلا): ومنه قول النبي "إن ا حرم مكة فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، لا يختلـي خلاهـا ولا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها، إلا لمعروف، وقال العباس: يـا رسول ا إلا الأذخر لصاغتنا، وقبورنا، فقال :إلا الأذخر،يقول العسقلاني :" قولـه ولا يختلى خلاها بالخاء المعجمة، والخلا مقصور، وذكر ابن التين أنه وقـع فـي رواية القابسي بالمد، وهو الرطب من النبات، واختلاؤه قطعه، واحتـشاشه قطعـه ،واستدل به على تحريم رعيه لكونه أشد من الاحتشاش، وبه قال مالك، والكوفيون، واختاره الطبري وقوله: إلا الأذخر يجوز فيه الرفع والنصب، أما الرفع فعلى البدل مما قبله وأما النصب فلكونه استثناء واقعا بعد النفي، وقال ابـن مالـك: المختـار النصي لكونه استثناء وقع متراخيا عن المستثنى منه ،فبعـدت المـشاكلة بالبدليـة، ولكون الاستثناء أيضا عرض في آخر الكلام، ولم يكن مقصودا"(183).

---

(181) العسقلاني، فتح الباري، ج6، ص312.

(182) المرجع نفسه، ج3، ص16.

(183) المرجع نفسه، ج4، ص203.

وهذا الأسلوب الاستثنائي يهتم بنفي الزيادة ويؤكد على أن مكـة محرمـه، ومحرم ما فيها إلا ما استثنى منها.

يقول العسقلاني في:" لا يصوم أحدكم يوم الجمعة إلا يوم قبلـه أو بعـده لا يصوم أحدكم كذا للأكثر وهو بلفظ النفي والمراد به النهي قوله إلا يوم قبله، أو بعده تقديره إلاّ أن يصوم يوما قبله، لان يوما لا يصح استثناءه من يوم الجمعة) (184).

ونلاحظ الإهمال الكلي لظاهرة القصر في الحديث السابق، والأسلوب البلاغي السابق يقع ضمن القصر الحقيقي،وجيء به في السياق السابق ليؤدي وظيفة التوكيد في توثيق حكم الصيام في يوم الجمعة ،وهو النهي عن القيام إن لم يسبقه، أو يعقبـه بصيام متتابع.

ثالثا: القصر بـ (إن - لا): ويتمثل ذلك في قول الرسول صـلى ا عليـه وسلم : "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون ا ورسوله أحب إليه ممـا سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا وأن يكره أن يعود في الكفر كمـا يكـره أن يقذف في النار ،واكتفى العسقلاني بقوله: قوله وأن يحب المرء قال يحيى بن معـاذ بحقيقة الحب في ا أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء "(185).

وهو كالعادة يغفل الإشارة إلى القصر إغفالا كليا، والقصر السابق الـذكر "لا يحبه إلا قصر حقيقي، الحب هو المقصور، وا المقصور عليه، وجملة القـصر ،أن الحب وليس لغيره، الهدف منه إيقاظ المخاطبين بإبطال الحب لغير ا ، لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام ومعاييره بالحب والعبادة.

ب : القصربـ(إنما): تعد (إنما) أداة من أدوات القصر تؤدي في معناها العام مـا تؤديه أداة النفي، والاستثناء.ويقع القصر مع (إنما) في المؤخر منها دون المقدم، فإذا قلت "إنما ضرب زيد عمرا، فان الاختصاص في الضارب، وإذا قلت: (إنما ضرب عمر زيدا)كان الاختصاص في المضروب ،ولا يستوي الحال بين التقديم والتأخير مع إلا، كذلك لا يجوز مع إنما "(186)

---

(184) المرجع نفسه ، ج4، ص203.

(185) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص59.

(186) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص340

والقول السابق يتضمن أن القصر "بإنما" يراعى المقدم لا المؤخر، هذا من ناحية، ويلمح عبدالقاهر أيضا، إلى ضرورة مراعاة المخاطب في استعمال إنما للقصر، فلا ينبغي أن يكون المخاطب خالي الوفاض، أو جاهلا بخبر(إنما)، يقول :" ومن استعمالات إنما أنها تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ،ولا يرفع حصته أو لمن ينزل هذه المنزله...... ومنه قول المتنبي:

إنما أنت والد والأب القا طع أحنى من واصل الأولاد

لم يرد أن يعلم كافورا أنه والد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام ولكنه أراد أن يذكر منه بالأمر المعلوم ليبني علية استدعاء ما يوجب كونه بمنزلة الوالد"(187)، ويردف قائلا: "ليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الرقائق، والأمور الخفية بالشيء الذي يدرك بالهوينى"(188).

ومن أمثلة القصر بإنما ما جاء في قوله : "حدثنا عبد العزيز بن عبد ا حدثنا إبراهيم بن سعد بن صالح بن أبي شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أن زينب ابنة أبي سلمه أخبرته أن أم سلمه زوج النبي صلى ا عليه وآله وسلم، أخبرتها عن رسول ا عليه السلام انه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر وانه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق فاقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم ،فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها"(189).

ومثاله أيضا قول النبي عليه السلام "ما أعطيكم ولا أمنعكم ،وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت... يقول العسقلاني: المعنى لا أتصدق فيكم بعطية ولا أمنع برأي. وقوله دائما أنا قاسم أضع حيث أمرت" أي لا أعطي أحدا ولا امنع أحدا إلا بأمر ا (190) " والعسقلاني لا تجذبه ظاهرة القصر ولا يهتم بمعاييرها هذه المرة، فحين قال الرسول – صلى ا عليه وسلم -: "إنما أنا قاسم " أراد تأكيد قضية واضحة

---

(187) العسقلاني، فتح الباري ، ص340.

(188) المرجع نفسه، ص272.

(189) المرجع نفسه ، ج13، ص149.

(190) المرجع نفسه، ج7، ص178.

وظاهرة، فأمر النبي في كل شي إن هو إلا وحي يوحى ،والنبي باستعماله "إنمـا" لا يقصد من وراء ذلك مجرد إثبات أمره الإلهي ،بل إلى التنبه على ما ينبغي اتخـاذه من سلوك عملي تنفيذا لهذه القضية المألوفة، وهي" عدم التخاصم والاحتجاج عنده".

ومن أمثلته قول النبي صلى ا عليه وسلم"قال عبد ا عـن النبـي عليـه السلام قال إبراهيم: لا ادري زاد أو نقص، فلما سلم قيل له: يا رسول ا أحدث في الصلاة شيءٍ ؟ قال ما ذاك؟ قالوا: صليت كذا، وكذا فثنى رجليه، واسـتقبل القبلـة وسجد سجدتين ثم سلم، فلما أقبل علينا بوجهه و قال: إنه لو حدث في الصلاة شيء لنبأتكم به، ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني، وإذا شك أحدكم في صلاته فليتحر الصواب،فليتم عليه ثم يسلم، ثم يسجد سجدتين"(191).

ويجري العسقلاني صوب الجانب الفقهي دون الاهتمام بالجانـب البلاغـي، وفي أسلوب القصر تحديدا فقوله: إنما أنا بشر - هو في تقديرنا- من قبيل قـصر الصفة على الموصوف ،واستخدمت إنما لأن المقام ليس بمقام إنكار للبـشرية عـن الرسول صلى ا عليه وسلم ،ولكن سيقت " إنما " تمهيدا للقضية المقـصودة مـن الحديث ،هي تعليم الناشئة كيفية إتمام الصلاة الناقصة بسجود السهو، والغرض مـن القصر المبالغة في المعنى.

ويكتفي العسقلاني أحيانا بالمرور السريع على ظاهرة القصر وإلقاء نظرات عابرة عليها كقوله في الحديث النبوي:" فرجع إليه الصبي ونفسه تتقعقع: قال حسبته أنه قال :كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول ا ، ما هذا؟ فقال هذه رحمة جعلها ا في قلوب عباده وإنما يرحم ا من عباده الرحماء، .... قوله إنما يـرحم ا من عباده الرحماء" ،الرحماء جمع رحيم، وهي من صيغ المبالغ، ومقتـضاه أن رحمة ا تختص بمن اتصف بالرحمة، وتحقق بها بخلاف من فيـه أدنـى رحمـة "(192).

والأسلوب البلاغي الوارد سابقا من قبيل قصر الصفة على الموصوف ،حيث جعل رحمة ا تقتصر على الرحماء، وعليه فالحديث النبوي قد استوعب أسـاليب

---

(191) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص448.

(192) المرجع نفسه، ج3، ص137.

القصر بـ " إنما"، لكن العسقلاني لم يحفل بتحليلها، واستنباطها، والسبب يعود كما أسلفنا إلى اهتمامه الفقهي في الشرح.

جـ : العطف بـ"لا"، و"لكن"، و"بل":

تعد طريقة القصر بأحرف العطف من أقوى الطرق، ذلك لأنه يُصرح فيهـا بالمقصور عليه والمنفي عنه؛ في حين يفهم المنفي من الطرق السابقة بشكل ضمني، ولهذا فإن سمة الإيجاز تتضاءل في هذه الجزئية من القصر، لأنه يصرح فيها كمـا أسلفنا بالإثبات،والنفي.

ومثالها من الشرح: زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول: " سـمعت أن عائشة تزعم أن النبي صلى ا عليه وسلم كان يمكث عنـد زينـب بنـت جحـش ويشرب عندها عسلا فتواصيت أنا وحفصة أن إذا دخل عليها النبي صلى ا عليـه وسلم أن تقول : أني أجد منك ريح مغافير، أأكلت مغافير؟: فـدخل علـى أحـدهما فقالت ذلك له، قال: لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، وا لا أعـود لـه. ونزلت " يا أيها النبي لم تحرم ما أحل ا لك "(193) وجـيء بالمثبـت " العـسل " والمنفي " المغافير في الحديث السابق بواسطة أداة القصر العاطفة" بل".

ومثاله أيضا" عن أبي بشر عن مجاهد " قلت لابن عمر رضي ا عنه أنـي أريد أن أهاجر إلى الشام قال لا هجرة ولكن جهاد فانطلق فـاعرض نفـسك فـإن وجدت شيئا وإلا فارجع"(194) ومثاله أيضاً عن أبي عثمان النهدي عن مجاشع بـن مسعود قال :"جاء مجاشع بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي صلّى اللّه عليـه وسـلّم فقال هذا المجالد يبايعك على الهجرة فقال :لا هجرة بعد الفتح، ولكن أبايعـه علـى الإسلام"(195) في المثال السابق حققت لكن(أداة القصر) نوعا من التأكيد والمبالغـة حيث قصر المبايعة على الإسلام،والجهاد، ونفاها عن الهجرة، لأن الهجرة انتهـت بانتهاء سببها وهو فتح مكة.

---

(193) العسقلاني، فتح الباري، ج11، ص492.

(194) المرجع نفسه ، ج8، ص22.

(195) المرجع نفـسه، ج6، ص154. وانظـر: ج6، ص471، 256، 152، ج3، ص329، ج3، ص521، ج10، ص145، ج9، ص391، ج9، ص423، ج9، ص508.

ثانيا: طريق سياقي:

ويتشكل عن طريق الحرف، والكلمة، وتقديم بعض أجزاء الجملة على بعض، وقد أشار العسقلاني إلى هذا اللون ،ومنه تقديم الاسم على الصفة، في الإثبات، كقوله:" حدثنا معلى بن أسد حدثنا عبد العزيز بن مختار قال خالد الحذَّاء حدثنا عن قال: حدثني عمرو بن العاص- رضي ا عنه -أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت:أي الناس أحب إليك؟ قال:عائشة، فقلت:ومن الرجال قال: أبوها.. قوله خالد الحذاء حدثنا هو من تقديم الاسم على الصفة وقد استعملوه كثيرا"(196).

ومثاله من النفي :" سمعت عبدالرحمن بن أبي ليلى يقول: ما حدثنا أحد أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلِي الضحى غير أم هانئ"(197).

والقصر يشتمل على شيئين: أحدهما، نفي نقل الحديث عن أحد، والثاني: إثبات نقل الحديث لأم هانئ، وعليه فيمكن أن نقول أن منهجية مضطربة في ظاهرة القصر كما هي في سابقته.

5.2 الذكر:

كثر الحديث حول ثنائيتي الحذف والذكر في كتب البلاغة قديمها وحديثها، مؤكدة جميع تلك المصنفات، على أن الذكر هو الأصل، وأن الحذف حالة طارئة عليه. ويتطرق الذكر إلى طرفي الجملة؛ المسند والمسند إليه. وقد أسهم البلاغيون إسهاماً واسعاً في الحديث عن أغراض الذكر، وتتلخص هذه الأغراض بما يلي(198):

أ. زيادة التقرير والإيضاح

ب. تبسيط الكلام

ج. تثبيت المعنى في نفس السامع وتأكيده

---

(196) العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص22

(197) المرجع نفسه، ج3، ص45.

(198) السكاكي، مفتاح العلوم، ص91-99.

د. السخرية والتحريض

هـ. التوبيخ

و. التعظيم

ز. التحقير

ح. ضعف التعويل على القرينة

ط. التنبيه على غباوة السامع وغيرهما

وأشار العسقلاني في فتح الباري إلى جملة من هذه الأغراض هي(199):

1. التنبيه إلى حال السامع:

يتضح هذا في شرح العسقلاني للحديث النبوي "عن أبي عباس أن رجلاً قال للنبي -صلى ا عليه وسلم-: أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال: ماله ماله؟، وقال النبي -صلى ا علية وسلم-: أرب ماله، تعبد ا ولا تشرك بـه شـيئاً، وتقـيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم"(200).

يقول "قوله وتصل الرحم... خص هذه الخصلة من بين خلال الخيـر نظـراً إلى حال السائل كأنه لا يصل رحمه فأمره به لأنه المهم بالنسبة إليه. ويؤخـذ منـه تخصيص بعض الأعمال بالحض عليها بحسب حال المخاطب، وافتقاره للتنبيه عليها أكثر مما سواها، إما لمشقتها عليه ،وإما لتسهيله في أمرها"(201).

2. إظهار التعظيم:

ويتجلى هذا في الحديث الشريف "حدثنا الأعمش قال: سمعت الحجاج يقـول على المنبر. السورة التي يذكر فيها البقرة والسورة التي يـذكر فيهـا آل عمـران والسورة التي فيها النساء، قال فذكرت ذلك لإبراهيم، فقال: حدثني عبدالرحمن بـن يزيد أنه كان مع ابن مسعود -رضي ا عنه- حين رمى جمرة العقبـة فاسـتبطن الوادي، حتى إذا حادى بالشجرة اعترضها فرمى سبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ثم قال من هاهنا والذي لا إله غيره – قام الذي أنزلت عليه سورة البقرة -صلى ا

---

(199) السكاكي، مفتاح العلوم, ص85–99.

(200) العسقلاني, فتح الباري, ج3، ص226.

(201) المرجع نفسه, ج3، ص229.

علية وسلم يقول العسقلاني:قال ابن المنير خص عبدا   سورة البقرة بالـذكر لأنهـا التي ذكر ا   فيها الرمي، فأشار إلى أن فعله -صلى ا   عليه وسلم- مبين لمـراد كتاب ا   تعالى. قلت: ولم أعرف موضع ذكر الرمي من سورة البقرة والظاهر أنه أراد أن يقول إن كثيراً من أفعال الحج مذكور فيها فكأنه قال هذا مقام الذي أنزلـت عليه أحطام المناسك، منبهاً بذلك علي أن أفعال الحج توقيفياً. وقيل خـص البقـرة بذلك لطولها وعظم قدرها وكثرة ما فيها من الأحكام"(202).

وهو في المثال السابق يورد عدة أسباب لذكر سورة البقرة دون أن يتبني رأياً منها.

3. زيادة التقرير والإيضاح:

ويتجلى في قول السيدة عائشة زوج النبي -صلى ا   عليه وسلم-: "وأن أول ما بديء به رسول ا   -صلى ا   عليه وسلم- الرؤيا الصادقة في النـوم فكـان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يلحق بغـار حـراء فيتحنث فيه، قال والتحنث: التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن يرجـع إلـى أهلـه، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود بمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غـار حراء".

قوله إلى أهله يعني خديجة وأولاده... وقوله ثم يرجع إلى خديجـة فيتـزود" خص خديجة بالذكر بعد إذ عبر بالأهل أما تفسيرا بعد إبهـام. وأمـا إشـارة إلـى اختصاص التزود لكونه من عندها دون غيرها"(203).

ويبدو أن حجم دراسته، أو عظمها لا تسعفه على التوقف عند كل جزئيـة، فهو على الرغم من اهتمامه بالذكر، إلا أنه أحياناً يغفل الإشارة إلى بعض مظـاهر الذكر البلاغية، ومن ذلك قول النبي -صلى ا   عليه وسلم-: "بينمـا رسـول ا   -صلى ا   عليه وسلم- في المسجد فأقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول ا   -صلى ا   عليه وسلم- وذهب واحد. فأما أحدهما فرأى فرجه فجلس، وأما الآخر فجلـس خلفهم. فلما فرغ رسول ا   -صلى ا   عليه وسلم- قال: ألا أخبركم عن الثلاثة. أما

---

(202) العسقلاني، فتح الباري، ج3، ص500.

(203) المرجع نفسه، 12\304

أحدهم فأوى إلى ا فأواه ا . وأما الآخر فاستحى فاستحى منه، وأما الآخر فأعرض فاعرض عنه"(204).

وقد ذكر المسند إليه وذكر لفظ الجلالة ا بعد الفعل بغرض التبرك بذكره والتنبيه إليه وليستقر في النفس مرتبطا بالفعل، ويفيد أنه هو الرحيم الذي يشمل برحمته كل من يطلبها وينافس الآخرين من أجلها، ولعل السبب وراء عدم ذكر لفظ الجلالة مع الفعلين (فاستحى) (واعرض) التنزيه له سبحانه، والتكريم له عن مثل هذا.

ومنه أمثلته : "عن أبي هريرة -رضي ا عنه- عن النبي -صلى ا عليه وسلم- قال: تسموا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي ومن رآني فقد رآني"(205) ففي ذكر المسند رآني تثبيت للمعنى في النفس وإيحاء باكتمال الرؤيا. ومنه أيضاً عن عائشة -رضي ا عنها- أن النبي -صلى ا عليه وسلم-. دخل عليه ناس يعودونه في مرضه فصلى بهم جالساً فجعلوا يصلون قياماً،فأشار إليهم أن اجلسوا فلما فرغ قال: إن الإمام ليؤتم به فإذا ركع فاركعوا وإذا رفع فارفعوا وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً"(206). الغرض من الذكر تأكيد وقوع الفعل وضرورة الاقتداء بالإمام في كل حال وفي أي صفة كان، ويرتبط بهذا المبحث معيار الإطناب البلاغي الذي يعرف بأنه زيادة اللفظ على المعنى لفائدة"(207). وأمر زيادة الألفاظ أو تطويلها. أمر موكول البحث فيه إلى المرسل الجاد مع الأخذ بعين الاعتبار، بأن تطويل الألفاظ ،أو إيجازها مرتبط بأمور أخرى، منها المقام المطروح للنظر فيه، ولم يغفل العسقلاني هذه الظاهرة، وتجلت مظاهر اهتمامه من خلال إشارته إلى **أشكال الأطناب** المختلفة ومنها:

1. الإيضاح بعد الإبهام:

---

(204) المرجع نفسه، ج1، ص144/1.

(205) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ،ص499.

(206) المرجع نفسه، ج1، ص120، انظر: ج1، ص230.

(207) ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، نهضة مصر، ط1، ج2، ص128.

ومثاله قول النبي -صلى ا عليه وسلم- حدثني عبدا بن يونس بن يزيـد قال أخبرني ابن شهاب أن عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي -صلى ا عليه وسلم- قالت: "كان أول ما بدئ به رسول ا -صلى ا عليه وسلم- الرؤيـا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه، قال: التحنث: التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بمثلها، حتى فجئه الحـق وهو في غار حراء"(208)"

وقوله ثم يرجع إلى خديجة فيتزود خص خديجة بالذكر بعد إذ غير بالأهل إما تفسيراً بعد إبهام، وإما إشارة إلى اختـصاص التـزود لكونـه مـن عنـدها دون غيرها"(209).

2. ذكر الخاص بعد العام:

ويؤتي به للتنبيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام، تنـزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات، ومن أمثلته قول العسقلاني في تبويبـه (باب دخول الحرم ومكة بغير إحرام) "هو من عطف الخاص على العام لأن المراد بمكة هنا البلد فيكون الحرم أعم"(210).

ومنه أيضاً: قول العسقلاني في الحديث النبوي "عن ابن عمـر -رضـي ا عنهما- قال: لما فدع أهل خيبر عبدا بن عمر، قام عمر خطيباً فقال: إن رسـول ا -صلى ا عليه وسلم- عامل يهود خيبر على أمواله، وقال: نقركم ما أمركم ا وأن عبدا بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعدي عليه من الليـل، ففـدعت يـداه، ورجلاه وليس لنا هناك عدو غيرهم ،هم عدونا، وتهمتنا، وقد رأيت إجلاءهم، فلمـا أجمع عمر على ذلك، أتاه أحد بني أبي الحقيق فقال: يا أمير المؤمنين أتخرجنا وقد أمرنا محمد -عليه الصلاة والسلام- وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنـا؟ فقـال عمر أظننت أني نسيت قول النبي -صلى ا عليه وسلم- كيف بك إذا أخرجت من

---

(208) العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص619.

(209) المرجع نفسه، ج7، ص621.

(210) المرجع نفسه، ج4، ص52؛ وانظر أيضاً: ج4، ص94؛ ج4، ص261، 306.

خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة. فقال: كان ذلك هزيلة من أبي القاسم فقال: كذبت يا عدو ا فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالاً وإبلاً وعروضاً من أقتاب وحبال وغير ذلك .يقول العسقلاني قوله، فأعطاه مالا،وإبلا، وعروضا...والمال .. وعطف الإبل عليه وكذلك العروض من عطف الخاص على العام"(211).

ومنه أيضاً: شرحه لقوله تعالى: " فيها فاكهة ونخل ورمان " الرحمن 68قال بعض المفسرين: ليس الرمان ولا النخيل من الفاكهة... قال: وقد ذهبوا في ذلك مذهبا . قلت: فنسبه الفراء لبعض المفسرين و أشار إلى توجيهه، ثم قال: ولكن العرب تجعل ذلك فاكهة. وإنما ذكرا بعد الفاكهة كقوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة...) والحاصل أنه من عطف الخاص على العام، كما في المثالين اللذين ذكرهما، واعترض بأن قوله هنا فاكهة نكرة في سياق الإثبات فلا عموم، وأجيب بأنها سيقت في مقام الامتنان فتعم، أو المراد بالعام هنا ما كان شاملاً لما ذكر بعده، وقد وهم بعض من تكلم على البخاري فنسب البخاري للوهم، وما علم أنه تبع في ذلك كلام إمام من أئمة اللسان العربي. وقد وقع لصاحب الكشاف نحو ما وقع للفرَاء وهو من أئمة الفن البلاغي فقال: فإن قلت: لم عطف النخيل والرمان على الفاكهة وهما منها؟ قلت: اختصاصاً وبياناً لفضلهما كأنهما -لما كان لهما من المزية–جنسان آخران كقوله: "وجبريل وميكال" بعد الملائكة"(212).

3. ذكر العام بعد الخاص:

ويؤتى به لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص، ومن أمثلته شرحه لقول البخاري :باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، يقول العسقلاني: "قوله:أموالهم، يشمل قليل النفقة وكثيرها وقوله: (اتقوا النار ولو بشق تمرة) يتناول الكثير والقليل أيضا، والآية أيضاً مشتملة على قليل الصدقة وكثيرها، من جهة التمثيل المذكور فيها بالطل والوابل ،فشبهت الصدقة بالقليل بإصابة الطل، والصدقة

---

(211) العسقلاني، فتح الباري، ج5، ص77.

(212) المرجع نفسه، ج8، ص537؛ وانظر: ج، 8، ص69، 166، 181.

بالكثير بإصابة الوابل، وأما ذكر القليل من الصدقة بعد ذكر شق التمرة، فهـو مـن عطف العام على الخاص"(213).

ومن أمثلته أيضاً: قوله: "باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرهـا" ذكر الديون بعد القرض من عطف العام على الخـاص والمـراد بغيـر الابـدان الأموال"(214)

ومنه أيضاً قوله: "لا رقية إلا من نفس أو حمة أو لدغة". فيحتمل أن يخـرج على أن الحمه خاصة بالعقرب فيكـون ذكـر اللدغـة بعـدها مـن العـام بعـد الخاص"(215).

4. التكرير:

وهو أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان متفق المعنى أو مختلفاً أو يأتي بمعنى ثم يعيده(216) والتكرار الذي أشار إليه العسقلاني يشمل عدة مـستويات كالحروف، والجمل الإسمية، والفعلية، والاستفهام وغيرها.

ومن أمثلة "أخبرني أنس بن مالك -رضي الله عنه- أنه رأى رسـول الله -صلى الله عليه وسلم- شرب لبناً وأتى داره فحلبت شاتاً، فسكبت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- من البئر فتناول القدح فشرب، وعن يساره أبو بكر وعـن يمينـه أعرابي فأعطى الأعرابي فضلته ثم قال: الأيمن فالأيمن قوله: الأيمن فالأيمن استنبط بعضهم من تكرار الأيمن أن السنه إعطاء من على اليمين ثـم الـذي يليـه وهلـم جر"(217) وهو من تكرار الاسم

ويتوقف أحياناً عند اختلاف الفقهاء في الحكم الشرعي، تبعاً لاختلاف تأويـل ظاهرة التكرار، متبنياً رأي شيخه ابن بطال ،كما في الحديث النبوي: "جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صـحابتي

---

(213) المرجع نفسه، ج3، ص245.

(214) العسقلاني، فتح الباري، ج4، ص403.

(215) المرجع نفسه، ج10، ص133.

(216) ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص129.

(217) العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص65.

قال: أمك قال: ثم من قال: أمك قال: ثم من قال أمك قال: ثم من قال: أبوك. يقـول العسقلاني: قوله قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك. وهكذا أوقع تكرار الأم ثلاثاً وذكر الأب في الرابعة، قال ابن بطال: مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر وكان ذلك لصعوبة الحمـل ثـم الوضع ثم الرضاعة فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها. ثم تشارك الأب في التربية وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمـه وهنـاً على وهن، وفصاله في عامين... فساوى بينهما في الوصاية وخص الأم بـالأمور الثلاثة قال القرطبي: المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر وتقـدم في ذلك على حق الأب عند المزاحمة. وقال عياض: وذهب الجمهور إلـى أن الأم تفضل في البر على الأب وقيل يكون برهما سواء ونقله بعضهم عن مالك والصواب الأول"(218). والهدف من تكرار كلمة الأم التعظيم لحق الأم والتأكيد عليه.

والعسقلاني في الطرق السابقة لا يكتفي بالإشارة إلى مواطن الإطناب، وإنما قد يرد بعض الآراء التي تدمج مواطن معينة إلى هذا اللون البلاغي، ومن أمثلتـه: "قوله كان رسول ا -صلى ا عليه وسلم- يحب العسل والحلوى... فتقديم العسل لشرفه ولأنه أصل من أصول الحلوى، ولأنه مفرد والحلوى مركبه وتقديم الحلـوى لشمولها وتنوعها، ولأنها تتخذ من العسل ومن غيره، وليس ذلك من عطـف العـام على الخاص كما زعم بعضهم، وإنما العام الذي يدخل الجميع فيه"(219).

وقد يتأرجح في بعض المواطن بين إدخالها ضمن طرق الإطناب أو عدمـه وفقاً لاختلاف العلماء السابقين له ومن أمثلته: "قول النبي -صلى ا عليه وسلم-:ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يقولها حتـى قلت لا يسكت....، قال ابن دقيق العيد: وأما عطف الشهادة على القول فينبغـي أن يكون تأكيدا للشهادة، لأنا لو حملناه على الإطلاق، لزم أن تكـون الكذبـة الواحـدة مطلقاً كبيرة،وليس كذلك، وإذا كان بعض الكذب منصوصاً على عظمه كقوله تعالى:

---

(218) العسقلاني، فـتح البـاري، ج10، ص341؛ وانظـر: ج6، ص149؛ ج6، ص151؛ ج10، ص349.

(219) المرجع نفسه، ج10، ص69.

(ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتنا وإثما مبيناً)، وفي الجملة مراتب الكذب متفاوتة بحسب تفاوت مفاسده، قال: وقد نص الحديث الصحيح علـى أن الغيبة، والنميمة كبيرة، والغيبة تختلف بحسب القول المغتاب به، فالغيبة بالقـذف كبيرة، ولا تساويها الغيبة بقبح الخلقة، أو الهيئة، وقال غيره: يجوز أن يكون مـن عطف العام على الخاص، لأن كل شهادة زور قول زور بغير عكس ،ويحتمل قول الزور على نوع خاص منه. قلت: والأولى ما قاله الشيخ، ويؤيده وقوع الشك فـي ذلك في حديث أنس الذي بعده ،فدل على أن المراد شيء واحد. وقـال القرطبـي: شهادة الزور هي الشهادة بالكذب ليتوصل بها إلى الباطل، من إتلاف نفس ،أو أخـذ مال، أو تحليل حرام، أو تحريم حلال، فلا شيء من الكبائر أعظم ضرراً منها ،ولا أكثر فساداً بعد الشرك با . وزعم بعضهم أن المراد بشهادة الزور في هذا الحديث الكفر، فإن الكافر شاهد بالزور ،وهو ضعيف، وقيل: المراد من يـستحل شـهادة الزور وهو بعيد"(220).

ومنه أيضاً شرح العسقلاني للحديث النبوي "حدثني إبراهيم عن ابن شـهاب عن سالم عن عبدا عن أبيه أنه أخبره أنه سمع رسول ا -صلى ا عليه وسلم- يقول إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العـصر إلـى غـروب الشمس وأوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطوا قيـراطين قيراطين فقال أهل الكتابين: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيـراطين، وأعطيتنـا قيراطاً قيراطاً، ونحن كنا أكثر عملاً قال: قال ا عز وجل: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء.يقول العسقلاني:قوله قيراطـاً قيراطاً" كرر قيراطاً ليدل على تقسيم القراريط على العمال لأن العـرب إذا أرادوا تقسيم الشيء على متعدد كررته كما يقال: أقسم هذا المال على بني فـلان درهمـاً درهماً لكل واحد درهم"(221).

(220) العسقلاني، فتح الباري, ج8، ص620.

(221) المرجع نفسه، ج1، ص243.

ومن اللفتات البارعة لدى العسقلاني في شرحه لطرق الإطناب قوله: "باب قدوم الأشعريين، وأهل اليمن" هو من عطف العام على الخاص؛ لأن الأشعريين من أهل اليمن" ويقول في موطن آخر: "وكنت أظن أن قوله وأهل اليمن بعد الاشعريين من عطف العام على الخاص ثم ظهر لي أن لهذا العام خصوصا أيضا وان المراد بهم بعض أهل اليمن وهم وفد حمير، فوجدت في "كتاب الصحابة ابن شاهين" من طريق إياس بن عمير الحميري أنه "قدم وافداً على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في نفر من حمير فقالوا: أتيناك لنتفقه في الدين"(222).

وهذا يظهر مدى التزام العسقلاني بالأمانة العلمية، وعدم التعصب للرأي، وجعل العلم أولاً، وقبل كل شيء.

ومن اللافت للنظر أن جميع الأمثلة المطروحة على ظاهرة الإطناب في شرح العسقلاني، تأتي ضمن عنونة البخاري للأبواب، مثل: "باب ضرب النكاح والوليمة" و"باب نزول القرآن بلسان قريش والعرب" وغيرها. ولم تأت أمثلة من متن الأحاديث النبوية في شرح العسقلاني إلا نادراً جداً.

6.2 الوصل والفصل:

لعلّ تصور عبد القاهر الجرجاني القائم على اعتبار أن أسرار البلاغة تكمن في معرفة الفصل والوصل، يعطي مؤشراً على أهمية آلياته في بناء النص فهو يقول "إن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تنساق واحدة من بعد أخرى من أسرار البلاغة"(223).

ويقول:

"واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه أنه خفي غامض ودقيق صعب إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب"(224).

---

(222) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص83.

(223) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص174.

(224) المرجع نفسه، ص237.

والجرجاني زيادة على أشادته تلك، خير من تصدى لهذا البـاب بالدراسـة فتجده يلخص نظريته في الفصل والوصل بقوله:

"وإذا قد عرفت هذه الأصول والقوانين في شأن فصل الجمل ووصلها فـاعلم أن قد حصلنا من ذلك على أن الجمل على ثلاثة أضرب: جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد فلا يكون فيها العطف البتـة يـشبه العطف فيها – لو عطفت – بعطف الشيء على نفسه، وجملة حالها مع التي قبلهـا حال الاسم يكون غير الذي قبله، إلا أن يشاركه في حكم، ويدخل معه فـي معنـى، مثل أن يكون كلا الأسمين فاعلا، أو مفعولا، أو مضافا إليه فيكون حقها العطـف، وجملة ليست في شيء من الحالين بل سبيلها مع التي قبلها ،سبيل الاسم مع الاسـم، ولا يكون منه في شيء فلا يكون إياه، ولا مشاركا له في معنى، بل هو شـيء إن ذكر لا يذكر إلا بأمر ينفرد به، ويكون ذكر الذي قبله، وترك الذكر سواء في حالـه لعدم التعلق بينه وبينه رأسا، وحق هذه ترك العطف البتة، فترك العطف يكون إمـا للاتصال للغاية أو للانفصال عن الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين ،وكان له حال بين حالين"(225).

ثم بين الجرجاني العلاقة التي ينبغي أن تجمع ما بين طرفي الاتصال بقوله " واعلم أنه كما يجب أن يكون المحدث عنه في إحدى الجملتين بسبب مـن المحـدث عنه في الأخرى، كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني ممل يجري مجرى التشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الثاني كقولك: زيد كاتب وعمرو شاعر، زيد طويـل القامة وعمرو قصير"(226).

ويقول في موطن آخر: "ومعلوم أن فائدة العطف في المفـردات أن يـشرك الثاني في إعراب الأول أنه إذا أشركه في إعرابه، فقد أشركه في حكم ذلك الإعراب نحو أن المعطوف على المرفوع بأنه فاعل مثله والمعطوف على المنـصوب بأنـه مفعول به أو فيه أو له شريك له"(227).

---

(225) الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص163.

(226) المرجع نفسه، ص225.

(227) المرجع نفسه، ص222-223.

ومضمون الأقوال السابقة يقضي بأن العطف بنوعيه عطف الجمل، وعطـف المفردات ،وان كان يقتضي المغايرة بين المتعـاطفين، فانـه يقتـضي المـشاركة والعسقلاني كرر هذه المضامين الجرجانية في شرحه قائلا: "ولا يلزم من الاشتراك في العطف الاشتراك في جميع الوجوه. إذ قد يعطف الأمر على النهـي والإيجـاب على النفي"(228).

وتناول الجرجاني في خضم حديثه أدوات الوصل ،وبين أن الأصل أن يكون العطف بالواو، وتختلف الواو عن باقي الأدوات بأنها لا تفيد سوى الاشـتراك فـي الحكم الذي يقتضيه الإعراب، أما بقية الحروف كالفاء، أو، وأم، ولكن، تفيد إلـى جانب الاشتراك معان أخرى، فالفاء تفيد مع الاشتراك، الترتيب والتعقيب، وثم تفيـد إلى جانب الاشتراك، الترتيب والتراخي وهكذا"(229).

والملاحظ أن علماء البلاغة القدماء تناولوا هذه الأدوات بشيء من الصرامة والتأطير، وقد كانت النظرات الحديثة لهذه الأدوات أكثر مرونة، حينما اعتبرت هذه الأدوات أبعادا مهمة في تشكيل الرؤيا النصية، والمعنى النصي.

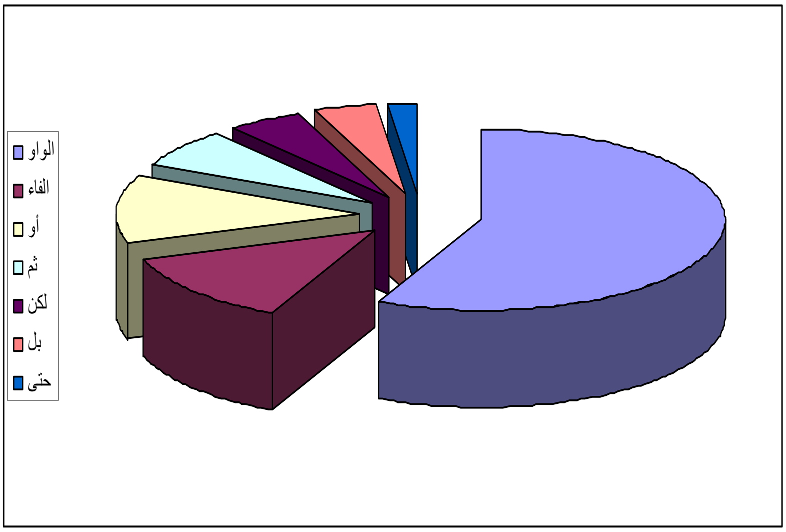
وتباين العسقلاني في تناوله لهذه الروابط من رابط لآخـر فقـد اقتـصرت إشارته في فتح الباري على الأدوات الآتية:

الواو، والفاء، وثم، و أو، ولكن، وبل، وحتى، والشكل البياني التـالي يبـين مدى التفاوت الحاصل في إشارة العسقلاني إلى آليات الوصل:

---

(228) العسقلاني، فتح الباري، ج4، ص465.

(229) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص231؛ القزويني، الإيضاح، ج2، ص62.



يمثل الرسم البياني السابق التطور التدريجي لاهتمام العسقلاني بآليات الوصل ودراسته تقود إلى مجموعة من النتائج المستوحاة على النحو التالي:

1. تعد الواو العاطفة من أكثر أدوات الربط حضورا في فتح الباري، ولعل الشافع له في هذا، أنه من أكثر الأدوات دورانا في الصحيح نفسه، ثم جاءت الفـاء، أو، وثم، ولكن، وكانت بل، وحتى الأقل حضورا في الشرح.
2. لم يكن استغلال العسقلاني لآليات الوصل استغلالا كافيا في شرحه، فقد أغفل العديد من الأدوات مثل أم، وكي،ولأن، ولام التعليـل، ولا، ويـشبه، ولعلـه، وغيرها لهذا لا نجد لديه إشارة إلى الوصل السببي كما نجد لديه إشارة إلى أن الوصل التفسيري مثلا.
3. إن اهتمامه بهذه الظاهرة يكثر في المجلـدات الأولـى (1-7) ويقـل فـي المجلدات الأخيرة (8-14) ولعل السبب في هذا هو تكرار الأحاديث المشار إليها سابقا في هذه المجلدات واختصاره في شرحه هذه الأحاديث على قولـه تجلت الإشارة إليها سابقا محددا موضع الذكر.
4. يتكاثف في الشرح الوصل التفسيري من خلال أداتي الفاء والواو.

1.6.2 الوصل: أنواعه ومواضعه:

يكاد يجمع البلاغيون على أن الوصل عطف الكلام بعضه على بعض، سواء أكان هذا العطف للمفردات أم للجمل، وسواء أكان بالواو أم بغيرها من الأدوات(230).

وأثار العسقلاني العطف في شرحه، وقسمه إلى أربعة أقسام هي:

1. العطف التفسيري:

يقول :"قوله والمصراة التي صرت لبنها وحقن فيها أي من في الثدي وجمع فلم يحلب عطف الحقن على التصرية عطف تفسيري لأنه بمعناه"(231).

2. العطف التلقيني:

يقول :"الواو في قوله والمقصرين معطوفة على شيء محذوف تقديره قل والمقصرين ،أو قل واقسم المقصرين، وهو يسمى العطف التلقيني، وفي قوله- صلى ا عليه وسلم- والمقصرين إعطاء المعطوف حكم المعطوف عليه ولو تخلل بينهما السكون لغير عذر"(232).

3. عطف الخاص على العام:

---

(230) القزويني، الإيضاح، ص147.

(231) العسقلاني، فتح الباري، ج4، ص310؛ وانظر أيضاً: ج10، ص52.

(232) المرجع نفسه، ج3، ص483. والعطف التلقيني: عطف كلام متكلم على كلام متكلم آخر، وليس بشيء لأن الملقن بالكسر، يقول للمتكلم قل كذا عاطفاً له على كلامه الأول، فليس معطوفاً في الكلام الملقن أصلاً، بل هو علامة في محل نصب معقول بمعنى متكلمً. الأنصاري، زكريا بن محمد: الغرر البهية في شرح منظومة البهجة الوردية، تحقيق محمد عبدالقادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج، ص141.

يقول "عطف العمل باليد على الكسب في قوله "باب كسب الرجل عمله بيده" من عطف الخاص على العام لأن الكسب أعـم مـن أن يكـون عمـلا باليـد أو بغيرها"(233).

4. عطف العام على الخاص:

يقول " قوله باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم وكل محفلـة والمصراة".وكل محفلة بالنصب عطفا على المفعول وهو من عطـف العـام علـى الخاص إشارة إلى أن إلحاق غير الغنم من مأكول اللحم بالنعم للجامع بينهما وهـو تعزيز المشتري"(234).

وقد يقف في خضم إشارته على الرؤية الكامنة في الوصل، معارضا برأيـه فيها الزمخشري في كشافه، والفراء:

يقول : "فاكهة ونخل ورمان قال بعض المفسرين ليس الرمان ولا النخل من الفاكهة قال: وقد ذهبوا في ذلك مذهبا: قلت: فنسبه الفراء لبعض المفسرين وأشـار إلى توجيهه ثم قال: ولكن العرب تجعل ذلك فاكهة وإنما ذكر بعد الفاكهـة كقولـه تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) والحاصل أنه من عطف الخـاص على العام كما في المثالين اللذين ذكرهما واعترض بأن قوله هنا فاكهة نكـرة فـي سياق الإثبات فلا عموم وأجيب بأنها سيقت في مقام الامتنان فتعم أو المراد بالعـام هنا ما كان شاملا لما ذكر بعده.

وقد وهم من تكلم على البخاري فنسب البخاري للوهم وما علم أنها تبع فـي ذلك كلام إمام من أئمة اللسان العربي وقد وقع لصاحب الكشاف نحو: ما وقع للفراء وهو من أئمة الفن البلاغي فقال: فان قلت: لم عطف النخل والرمان علـى الفاكهـة وهما منها؟ قلت: اختصاصا وبيانا لفضلهما كأنهما بما كان لها من المزية جنـسان آخران كقوله وجبريل وميكال بعد الملائكة"(235).

---

(233) المرجع نفسه، ج4، ص261.

(234) العسقلاني، فتح الباري، ص310.

(235) المرجع نفسه، ج8، ص537.

2.6.2 مواضع الوصل:

للوصل عدة من المواضع التفت إليها العسقلاني في شرحه وأغفلهـا أحيانـا أخرى وهي على النحو التالي:

أولاً: أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع مع الإيهام، وذلك بأن تكـون أحـدهما خبرية والأخرى إنشائية، ولو فصل بينهما لأوهم خلاف المقصود منهما.

ومن أمثلته قول النبي صلى ا عليه وسلم: عن عبدا قال: كثيرا ما كـان النبي يحلف لا ومقلب القلوب"(236).

ومنه أيضاً: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني أبو عبيد مـولى عبـد الرحمن بن عوف "أن أبا هريرة قال: سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلم يقول: لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسـول ا ؟ قـال لا: ولا أنـا إلا أن يتغمدني ا بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إمـا محـسنا فلعله أن يزداد خيرا وإما مسيئا فلعله أن يستجيب"(237).

فلو فصل بين قوله (لا مقلب القلوب) و(لا–أن) لأفاد عكس المراد.

ثانياً: أن تكون الجملتان متفقتين خبرا وإنشاء لفظا ومعنى ومن ذلك قوله:

"عن أبي موسى عن النبي صلى ا عليه وسلم قال: من أحب لقاء ا أحـب ا لقاءه ومن كره لقاء ا كره ا لقاءه".

يقول العسقلاني في شرحه نقلا عن الآخرين "قال الكرماني: ليس الشرط سببا للجزاء، بل الأمر بالعكس، ولكنه على تأويل الخبر أي من أحب لقاء ا أخبره بأن ا أحب لقاءه وكذا الكراهة وقال غيره فيما نقله ابن عبد البر وغيـره "مـن" هنـا خبرية وليست شرطية فليس معناه أن سبب حب ا لقاء العبد حب العبد لقـاءه، ولا الكراهة، ولكنه صفة حال الطائفتين في أنفسهم عند ربهم، والتقدير من أحب لقاء ا فهو الذي أحب ا لقاءه وكذا الكراهة(238).

---

(236) العسقلاني، فتح الباري، ج11، ص440.

(237) المرجع نفسه، ج10، ص108.

(238) المرجع نفسه، ج11، ص305.

فالجملتان الموصولتان اتحدتا في الخبرية لفظا ومعنى،والعسقلاني كما نـرى يقتصر على إشارة الكرماني، وعبد البر إلى اتفاق الجملتين في الخبرية، وهم جميعا لم يتجاوزوا الوظيفة الدلالية التي عني بها النحاة من ترتيب وتعقيب وإشراك، وفي الوصل إبلاغية غفل عنها بل فيه" طاقة أسلوبية ذات معين لا ينضب وفيه تتجلـى إمكانات المبدع في الصياغة والتعبير"(239).

وسنحاول أن نكشف عن جماليات الوصل وابلاغيته في الحديث السابق، الذي اكتفى العسقلاني فيه بترديد آراء الآخرين اللغوية، فنقول أن:

الواو التي جاءت للاشتراك جمعت بين عنصرين متباعدين، وضرورتين من ضرورات العلاقة الإلهية (الحب، الكراهة) وبدأ الحديث النبـوي بالمحـب وهـو المسرع في تخليه عن الدنيا، وإيثاره للآخرة من أجل لقاء ا وانتهى بالكاره وهـو المتأخر والمحب للدنيا الكاره للخروج من جنته الأرضية، والرافض لكل معطيـات العالم المجهول فجاءت الواو في منتصف الحديث النبوي لتجسد المفارقة الكبيرة بين العنصرين.

ونجد العسقلاني يغفل في بعض الأحيان الإشارة حتى إلى الإشـارة اللغويـة ومن ذلك العطف الإنشائي في قوله تعالى: "ومن حيث خرجت فول وجهـك شـطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لـئلا يكـون للنـاس علـيكم حجة"(240).

فقد جعلت أداة الوصل ما بين الجملتين المتوافقتين إنشائيا في اللفظ والمعنى.

ومن المعايير التي أغفلها العسقلاني أيضاً:

أن تتفق الجملتان في المعنى وان اختلفتا إنشاء، ومنها قوله تعالى: "ولـيس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من أتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا ا لعلكم تفلحون"(241). يقول ابن عاشور "جملة وأتوا البيوت من أبوابها معطوفـة

---

(239) ويس، أحمد محمد، جماليات التقديم والتأخير في الدرس البلاغي، مجلـة علامـات، ع 19، 1998، ص291.

(240) سورة البقرة، الآية150؛ وانظر:العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص148-149.

(241) سورة البقرة، الآية189؛ وانظر: العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص155.

على جملة وليس البر وهو عطف الإنشاء على الخبر الذي هو في معنـى الإنـشاء ولأن قوله " ليس البر" في معنى النهي عن ذلك فكان كعطف أمر على نهي"(242).

3.6.2 الفصل في فتح الباري ومواضعه:

أدرك العرب قيمة الفصل في النص الأدبي وجعلوه هو الأصـل،وقد عرفـه صاحب الإيضاح بأنه ترك عطف الجمل بعضها على بعض(243).

وللفصل عند البلاغيين موضعان هما:

ألا يقصد التشريك بين الجملتين، وألا يكون للجملة الأولى قيـد أصـلا، أو يكون لها قيد يراد إعطاؤه للثانية، ويتجلى ذلك من خلال عدة أشكال هي:

أولاً: كمال الاتصال: وهو أن يكون بين الجملتين اتحاد كلي وامتزاج معنوي وذلـك يكون بما يلي:

أ. أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيدا لفظيا أو معنويا، يقـول الجرجـاني: "وحد التوكيد أن يتحقق باللفظ معنى قد فهم من لفظ آخر قد سـبق"(244) ومـن أمثلته في فتح الباري "قوله غاشية من عذاب ا عامة مجللة بالجيم وهي توكيد لقوله عامة"(245).

ويكاد يغفل العسقلاني ظاهرة الفصل بكل مواضعها اللفظية والمعنوية فـي شرحه ،بل إنك تجد لديه مجلدات بأكملها، لا موطن لإشارة واحدة للفـصل فيهـا، ومثال ذلك المجلد الثامن الخاص بتفسير القرآن، والتفاسير تعج بالإشارة إلى موطن هذا الفصل وذاك، بينما يتنحى العسقلاني عن ذلك جانبـا، ولعلـه اكتفـى بـصنيع المفسرين في هذا مقتنعا بمبدأ أن لا فائدة من التعريف بالشيء المعـروف. ومـن

---

(242) ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية والمؤسسة الوطنيـة للكتاب، الجزائر، 1984م، ص128.

(243) القزويني، الإيضاح، ص147.

(244) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص230.

(245) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص308.

أمثلته قوله تعالى: "ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر أنهم لن يضروا ا شـيئا ولهم عذاب عظيم"(246).

يقول ابن عاشور "جملة" إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان تكرير لجملة "إنهـم لن يضروا ا شيئا" قصد مع التأكيد، إفادة هذا الخبر استغلاله للاهتمام به بعـد أن ذكر على وجه التعليل لتسلية الرسول عليه السلام، وان اختلاف الصلتين إيماء إلى أن مضمون كل صلة منها ،هو سبب الخبر الثابت لوصلها، وتأكيد لقوله: وإنهم لـن يضروا ا شيئاً المقدم(247).

ومن أمثلته أيضاً: "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا إنـا معكـم وإذا خلـوا إلـى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ا يستهزأ بهم ويمدهم فـي طغيـانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحـت تجـارتهم ومـا كـانوا مهتدين"(248).

يقول ابن عاشور: "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فصلت الجملة عـن الذي قبلها لتفيد تعزيز معنى ويمدهم في طغيانهم يعمهون فمضمونها بمنزلة التوكيد، وذلك ما يقتضي الفصل، ولتفيد تعليل مضمون جملة" ويمدهم في طغيانهم يعمهون" فتكون استئنافا بيانيا للسائل عن العلة"(249).

ومن أمثلته في الحديث النبوي والتي أغفلها العسقلاني:

"حدثنا ابن سلام أخبرنا تراجع عن ابن أبي خالد قال: سمعت ابن أبي أوفـى رضي ا عنهما قال دعا رسول ا صلى ا عليه وسلم على الأحزاب فقال "اللهم منزل الكتاب سريع الحساب أهزم الأحزاب اهزمهم وزلزلهم"(250).

---

(246) سورة آل عمران، الآية176-177.

(247) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص296.

(248) سورة البقرة، الآية14-16.

(249) ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج1، ص297.

(250) العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص162.

ومنها أيضاً: سمعت البراء يقول كان الرسول -صلى ا عليه وسلم- أحسن الناس وجها، وأحسن خلقا، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير(251).

فجملة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير تأكيد معنوي لقوله "أحسن خلقاً" وهذا التوكيد فصل الجملة الثانية عن الأولى وحذف أداة العطف لكمال الاتصال بينهما.

ب. أن تكون الجملة الثانية منزلة من الأولى منزلة البدل، ومن أمثلته من الفتح:

قول العسقلاني في الحديث النبوي عن أبي أسيد رضي ا عنه قال:" خرجنا مع النبي صلى ا عليه وسلم حتى انطلقنا إلى حائط يقال له الشوط حتى انتهينا إلى حائطين جلسنا بينهما فقال النبي -صلى ا عليه وسلم-: اجلسوا ها هنا ودخل، وقد أتى بالجونية فأنزلت في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمـان بـن شـرحبيل .يقول: "قوله فأنزلت في بيت نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شرحبيل" أميمـة بالرفع إما بدلاً من الجونية وإما عطف بيان"(252).

ومن أمثلته قول العسقلاني: "رأيت النبي -صلى ا عليه وسـلم- ورأيـت بياضاً من تحت شفته السفلى العنفقة بالكسر على أنه بدل من الشفة ،وبالنصب على أنه بدل من قوله بياضاً"(253).

ومن أمثلته أيضا :"عن عائشة -رضي ا عنه- أن النبي -صلى ا عليـه وسلم- كان يعوذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول: اللهم رب النـاس اذهـب الباس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما.يقول العـسقلاني "قوله لا شفاء بالمد مبني على الفتح والخبر محذوف والتقدير لنا أولـه إلا شـفاؤك بالرفع على أنه بدل من موضع لا شفاء"(254).

وبالمقابل أغفل العسقلاني الإشارة إلى العديد من هـذه المواضـع مفـصولة بالبدل، ومنها: "عن ابن عمر -رضي ا عنهما- أن النبي -صلى ا عليه وسلم-

---

(251) العسقلاني، فتح الباري، ج6، ص407.

(252) المرجع نفسه، ج9، ص306.

(253) المرجع نفسه، ج6، ص473.

(254) المرجع نفسه، 101، ص176؛ وانظر: ج1، ص128، ج6، ص163، ج9، ص242.

قال كريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام"(255).

فجملة يوسف بن يعقوب –فيما نرى- بدل من الكريم وقد حذفت أداة العطف لكمال الاتصال ما بين الجملتين.

وعن أبي هريرة -رضي ا عنه- قال: سئل رسول ا -صـلى ا عليـه وسلم-: أي الناس أكرم قال: أكرمهم عند ا اتقاهم قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فأكرم الناس فعن يوسف نبي ا ابن نبي ا ابن نبي ا ابن خليل ا فقالوا لـيس عن هذا نسألك قال: فعن معادن الناس تسألوني؟ قالوا نعم: فخياركم فـي الجاهليـة خياركم في الإسلام إذا فقهوا"(256).

فجملة نبي ا بدل من يوسف -عليه الـسلام- فـصلت الجملتـين لكمـال الاتصال بينهما.

والعسقلاني في كل الأمثلة السابقة يكتفي بالعرض المجرد، والإشارة السريعة المخلفة للقول النمطي المكرر تقريبا في جميع صحائف الآخرين ،مغفلا السر الكامن وراء هذا الفصل أو الإبلاغية القابعة خلفه، وفي هذا تقزيم لـدور هـذه الظـاهرة الأسلوبية البارزة، وعليه فأنني سأسمح لنفسي ببيان جمالية الفـصل التـي أغفلـه العسقلاني وليكن ذلك في الحديث النبوي اللهم منزل الكتاب، مجري السحاب، هازم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم".

فالفصل في هذه الجمل يقدم إدراكاً خاصة للمدقق لا يمكن أن يظفر به فـي حالات أخرى حيث يكشف النص عن قدرة ا من خلال جملة من التراكمات التـي ترسم عالما خاصا للقدرة الإلهية يوحي بمقدار العجز البشري (فالكتاب، والـسحاب، والأحزاب) جميعها مقومات جماعية منفصلة تتسق والطبيعـة الإلهيـة الخارقـة، فالقرآن الكريم معجزة خالدة فاقت جميع الكتب السماوية بكل ضـروب الإعجـاز، والسحاب معجزة تحمل جماع الرزق والأمل(257) الذي يتجذر في النفوس، ويـسمو

---

(255) العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص345.

(256) المرجع نفسه ، ج8، ص309؛ وانظر: ج5، ص339.

(257) المرجع نفسه، ج6، ص127-128.

معه إلى أعلى المراتب، والأحزاب تمثل استمرار الأمل، والتفاؤل والحياة بـدلالتها النصية لا المعجمية، وفصل ما بين هذه المقومات لأن كل واحدة منهـا لـه حيـزه فالسحاب عالم علوي، والأحزاب عالم سفلي، والكتاب جمع ما بين العالمين (جاء من علوي إلى سفلي) فالترابط والإشراك تحمله الألفاظ الثلاثـة فـي طياتهـا الدلاليـة ،فاستغني به عن أداة الربط والإشراك النصية الظاهرة، لأنها لن تضيف عندئذ شيئا جديدا، يجسد القدرة الخارقة على الجمع ما بين المتناقضات في آن واحد.

واستقصاء أمثلة أخرى سيعطينا النتيجة ذاتها وهـي أن العـسقلاني أغفـل إبلاغية الفصل، والمحاور الهامة المبتغاة منه.

2. الاستئناف البياني:

وهو أسلوب يعتمد على دفع التوهم والضبابية الحالة في ذهن المتلقـي فـي أثناء تلقيه الخطاب، وجعله علماء البلاغة في ثلاث حالات(258):

1. إن السؤال الذي تتضمنه الجملة الأولى ناتج عن سبب مطلق للحكم فيه.
2. إن السؤال ناتج عن سبب خاص.
3. أو عن غير هذين السببين.

وأشار العسقلاني إلى هذا بقوله:- "قوله في الحديث النبوي عن النبي -صلى ا عليه وسلم- "السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه".

فهو يقول "قوله يمنع أحدكم كأنه فصله عما قبله بيانا لذلك بطريق الاستئناف كالجواب لمن قال كان كذلك فقال: يمنع أحدكم نومه أي وجه التشبيه اشتمال علـى المشقة"(259).

وبالمقابل اغفل الاستئناف في القرآن الكريم، وسنكتفي بقوله تعالى: "وقـالوا هذا الأنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمـت ظهورهـا وأنعام لا يذكر اسم ا عليها افتراء عليه سنجزيهم وصفهم بما كانوا يفترون"(260).

---

(258) الجرجاني ،دلائل الإعجاز، ص236-242.

(259) العسقلاني، فتح الباري، ج3، ص535؛ وانظر: ج10، ص258.

(260) سورة الإنعام، الآية138.

فجملة "سنجزيهم بما كانوا يفترون" استئناف بياني؛ لأن الافتراء على الخالق أمر شنيع عند جميع الخلق فالإخبارية يثير سؤال من يسأل عما يتلقونه من جـراء افترائهم، فأجيب بإذن ا سنجزيهم بما كانوا يفترون وقد أبهم الجزاء للتهويل ليكون كل مذهب ممكن في أنواع الجزاء علة الإثم"(261).

وعليه نرى أن استغلال العسقلاني لمواضع الفصل لم تكن كافية مقارنة بحجم الشرح البالغ خمسة عشر مجلدا زيادة على تخليه الكامل –في الأغلب الأعم– عـن الوقوف على خفايا ظاهرتي الفصل والوصل.

الالتفات:

مصطلح قديم حديث جاء في بدايته مقننا ومقيدا، حيث حـصره البلاغيـون الأوائل بالتحول من ضمير إلى آخر، ثم وسعت دائرة هذا المفهوم ليشمل كل تحول أو انكسار في نسق التعبير، فأضاف ابن الأثير إلى ازدواجيـة الـضمائر، صـيغ الأفعال يقول: "الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الفعل الماضي إلـى فعل الأمر، والإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي"(262).

والتحول العددي يقول "الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع، ومـن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد"(263).

وتنبه القدماء إلى قيمة الالتفات ودوره الدلالي، فالزمخشري يرى الكـلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك "أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصـغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد وقد تختص مواقعه بفوائد"(264).

أما ابن الأثير فيقول "إن عادة المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قالوا كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها، وهذا هو عكاز

---

(261) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص109.

(262) ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر، ج1، ص165-166.

(263) المرجع نفسه، ص169.

(264) الزمخشري، الكشاف، ج1، ص10.

العميان كما يقال ونحن إنما نسأل عن السبب الـذي قـصدت العـرب ذلـك مـن أجله"(265).

فالالتفات وفق الآراء السابقة، يحدث هزة غير متوقعة تؤدي إلى حالة مـن التيقظ الفكري لدى المتلقي، تدفعه للخروج بما هو وراء تلك الهـزة مـن دلالات، ومواقف.

فإذا أردنا التعرف على موقف العسقلاني من هذا الأسلوب البلاغي وجـدناه متابعا لمسيرة هذا المصطلح عبر مؤلفات هذا الموروث، وأجدني مضطرة لاقتباس نص طويل لإثبات ذلك يقول: "قوله: قال معمر ذلك الكتاب هـذا القـرآن هـدى للمتقين: بيان دلالة كقوله (ذلكم حكم ا)): هذا حكم ا ، لا ريب فيه: لا شك (تلـك آيات ا) يعني هذه أعلام القرآن ومثله (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم يعنـي بكم) معمر هذا هو ابن المثنى اللغوي أبو عبيدة، وهذا منقول عن ذكره في كتـاب مجاز القرآن ووهم من قال أنه معمر بن راشد شيخ عبد الرزاق، وقد اغتر مغلطاي بذلك فزعم أن عبد الرزاق أخرج ذلك في تفسيره عن معمر، وليس ذلك في شـيء حتى نسخ تفسير عبد الرزاق، ولفظ أبي عبيدة (ذلك الكتاب) معناه هذا القرآن، قـال وقد تخاطب العرب الشاهد بمخاطبة الغائب ،وقد أنكر ثعلب هـذه المقالـة، وقـال استعمال أحد اللفظين موضع الآخر يقلب المعنى، وإنما المراد هذا القرآن هو ذلـك الذي كان يستفتحون به عليكم، وقال الكسائي: لما كان القول والرسالة من الـسماء والكتاب والرسول في الأرض قيل ذلك يا محمد.

وقال الفراء: هو كقولك للرجل وهو يحدثك: وذلك ،وا الحق فهـو بـاللفظ بمنزلة الغائب وليس بغائب وإنما معنى ذلك الذي سمعت به، واستشهد أبـو عبيـدة بقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾ فلما جـاز أن يخبـر بضميرين مختلفين ضمير المخاطب للحاضر وضمير الغيبة عن الغائب في قـصة واحدة فكذلك يجوز أن يخبر عن ضمير القريب بضمير البعيد، وهو صنيع مشهور بكلام العرب يسميه أصحاب المعاني (الالتفات)، وقيل الحكمة في هذا أن كـل مـن خوطب يجوز أن يركب الفلك لكن لما كان في العادة أن لا يركبها إلا الأقل، وقـع

---

(265) ابن الأثير، المثل السائر، ص165.

الخطاب أولا للجميع ثم عدل إلى الإخبار عن البعض الذين من شـأنهم الركـوب، وقال أيضا: لا ريب:أي لا شك فيه، هدى للمتقين: أي بيان للمتقين، ومناسـبة هـذه الآية لما تقدم من جهة أن الهداية نوع من التبليغ.

وقال في تفسير سورة أخرى تلك آيات: هذه آيات وقال في تفـسير سـورة أخرى للآيات: الإعلام وهذا قد تقدم في تفسير سورة يونس التنبيه عليه، وإما قولـه (ومثله حتى كنتم) فمراده أنه نظير استعمال ذلك موضع هذا، فلما ساغ استعمال ما هو للغائب للحاضر ولفظه (مثله) بكسر الميم وسكون المثلثة ،وضبطه بعضهم بضم الميم والمثلثة واللام، وهو بعيد، والأول هو الموجود في كتاب أبي عبيدة قـال فـي مقدمة كتابه المذكور: فانه قال ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الـشاهد ثـم حول إلى مخاطبة الغائب قوله تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلـك وجـرين بكـم) أي بهم"(266).

وهو في النص السابق يستعرض مفهوم الالتفات في بداياته وموقف كل من: أبو عبيدة الذي يدرج كثيرا من ألوان هذه الظاهرة تحت مـصطلح المجـاز، ولـم يتعرض لدور هذه الظاهرة في الكشف عن الدلالة، وتابعة في ذلك الفراء، والكسائي منتهيا ببراعة السكاكي، الذي نقل الالتفات من البديع إلى علم المعاني، ومن البيـان كما يرى الزمخشري إلى علم المعاني، وهو يتابع تطورات مصطلح الالتفات مـن خلال إشارته إلى مصطلح (التجريد) في شرحه يقول "فيه تجريد كأن حرملة قـال: بينما أنا فجرد من نفسه شخصا فقال بينما هو"(267).

وقوله "ويحمل أن يكون من التجريد كأنه جرد من رجل موصوف بكذا وكذا رجلا فقال: نعم الرجل المجرد من كذا رجل صفته كذا"(268).

هذا المصطلح الذي يثير من خلاله الخلاف التراثي في تحديد مجال الالتفات فالزمخشري والسكاكي وغيرهم يرون أن الالتفات يتحقق بتحول الضمائر (المتكلم، الخطاب، الغيبة) وبالتعبير بأحد هذه الأنواع في مقام يقتضي ذلك"(269).

---

(266) العسقلاني، فتح الباري، ج13، ص428، 429.

(267) المرجع نفسه، ج7، ص76.

(268) المرجع نفسه، ج9، ص81.

أما جمهور أهل البلاغة فيرون أن الالتفات لا يتحقق إلا في الصورة الأولى فقط ،أما مخاطبة الشاعر لنفسه فيدرجونه تحت باب التجريد، الذي يصفه ابن الأثير بقوله :"إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك"(270).

والعسقلاني بتبنيه لمصطلح التجريد يقف إلى جانب جمهور البلاغة،وهو محق في هذا، فالنقل الحاصل في التجريد نقل نسبي اجتهادي، وليس نقلاً قطعياً مرئياً ماثلاً بطرفيه في النص كما هو في الالتفات.

أما حديثاً فقد أطلق عليه كوهن الانزياح وجعله "خرقا لقانون اللغة"(271). فلكل مفردة في اللغة ما يصاحبها من مفردات أخرى، لكن المبدع أحيانا قد يعمد إلى بعض الألفاظ غير المتوقعة والبعيدة عن سابقتها، فيأتي دور المتلقي عندئذ ليخلق بتأويله صفة الانسجام أو كما قال المسدي ليولد "اللامنتظر من المنتظر"(272).

فهل استطاع العسقلاني أن يولد بإشارته إلى مواطن الالتفات، والخرق الحاصل اللامنتظر؟

الحقيقة أن العسقلاني يسير على منوال صاحب الكشاف في تحليله لصور الالتفات، حيث كان هذا التحليل لديهم يعتمد في الأغلب الأعم من أحواله على مقارنة الصورة الالتفاتية بصورة أخرى (مقدرة) تعادلها دلاليا، أطلقوا عليها أصل الكلام" (273).

ومن أمثلته قول العسقلاني: "قوله فقالت الجنة يا رب ما لها فيه التفات لأن نسق الكلام أن تقول ما لي"(274).

---

(269) الزمخشري، الكشاف، ج1، ص10؛ السكاكي، مفتاح العلوم، ص87.

(270) ابن الأثير، المثل السائر، ص423.

(271) كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية ، ص109.

(272) المسدي، عبدالسلام، الأسلوب والأسلوبية، ص423.

(273) الزمخشري، الكشاف، ج2، 98 221، ج3، ص43. وقارنه بفتح الباري، ج4، 420، ج8، ص309.

(274) العسقلاني، فتح الباري، ج13، ص371.

ومنه أيضاً "وكانوا أي الصحابة (أحرص شيء على الخير) فيـه التفـات إذ السياق يقتضي أن يقول (وكنا أحرص شيء على الخير)(275).

"قوله أرسل معي عبد الرحمن إلى التنعيم فأردفها فيه التفـات لأن الـسياق يقتضي أن يقول فأردفني"(276).

والعسقلاني مقتنع فيما يبدو بأن الالتفات لا ينحصر في مجال الضمائر لذلك نجد لديه إشارات عابرة ومجردة إلى المجالات الأخـرى مـن الـصيغ والأعـداد وسنحاول المرور على تلك المجالات لديه:

الضمائر:

وهي بؤر أسلوبية تنقل رؤية ما يقتضيها السياق، وقـد يجعلـك تبادلهـا أو تحولها أحيانا أمام تعمية نصية تحتاج إلى تأويل لفك تلك التعمية ويدرج أصـحاب نظرية تحليل الخطاب هذا اللون الأسلوبي تحت باب الإحالات المقامية وتعود فـي هذا النوع من الإحالات "الكنائيات لغير مذكور إلى أمور تستنبط من الموقف لا من عبارات تشترك معها في الإحالة في نفس النص والخطاب"(277).

وتسهم الإحالات المقامية في تشظي النص على المستوى اللـساني وزيـادة سطوة التشتت والانقطاع مما يعطي مجالا كبيرا للتأويل وفتح باب الطاقات الإيحائية وحصر العسقلاني تحول الضمائر في الصور التالية:

أ. (غيبة-خطاب)

فمن ذلك قوله: عن عائشة -رضي ا عنها- جاء حسان بن ثابت ليـستأذن عليها "فيه التفات من المخاطبة إلى الغيبة"(278).

ومنه أيضاً: "قوله يقال تلك آيات ا تعني إعلام القرآن ومثله حتى إذا كنـتم في الفلك وجرين بهم المعنى بكم وقائل ذلك هو أبو عبيدة بن المثنى وفـي تفـسير

---

(275) العسقلاني، فتح الباري، ج4، ص420.

(276) المرجع نفسه، ج3، ص524.

(277) بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص332.

(278) العسقلاني، فتح الباري، ج3، ص332.

السدي آيات الكتاب الإعلام والجامع بينهما إن في كل منهما صرف الخطـاب مـن الغيبة إلى الحضور وعكسه"(279).

ب. الغيبة والتكلم:

يقول العسقلاني في الحديث النبوي أتي النبي -صلى ا عليه وسلم- عـين من المشركين وهو في سفره فجلس عند أصحابه يتحدث، ثم انتقل فقال النبي -صلى ا عليه وسلم- اطلبوه واقتلوه، فقتلته فنقله سلبه " قوله (فقتلته فنفله سلبه) كذا فيـه وفيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة وكان السياق يقتضي أن يقول فنفلني"(280).

ومن أمثلته قول النبي -صلى ا عليه وسلم- "انتدب ا لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان به وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من اجر أو غنيمة.

يقول العسقلاني "قوله وتصديق برسلي ذكره الكرماني بلفظ أو تـصديق ثـم استشكله وتكلف الجواب عنه والصواب أسهل من ذلك لأنه لم يثبت في شيء مـن الروايات تلفظ (أو) وقوله بي عدول من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم فهو التفات وقال ابن مالك.

كان اللائق في الظاهر هنا إيمان به. ولكنه على تقدير اسم الفاعل من القول منصوب على الحال أي انتدب ا لمن خرج في سبيله قائلا لا يخرجه إلا إيمان بي ولا يخرجه مقول القول لأن صاحب الحال على هذا التقدير هو ا وتعقبه شـهاب الدين بن حرمل بأن حذف الحال لا يجوز وان التغيير باللائق هنا غير لائق والأولى أنه من باب الالتفات وهو متجه"(281).

ومن ذلك أيضاً: القول المقتبس من الحديث النبوي وفيـه "وشـغلت بـأمر المسلمين فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال واصرف للمسلمين..قوله آل أبي بكر أي هو نفسه ومن تلزمه نفقته وقيل أراد نفسه بدليل قوله (اصرف) حكاه الطيبي قـال: ويدل عليه نسق الكلام لأنه اسند الاختلاف إلى ضمير المـتكلم عاطفـا لـه علـى فسيأكل) فلو كان المراد الأصل لتنافر، وجزم البيضاوي بأن قول آل أبي بكر عدول

---

(279) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص295؛ وانظر أيضاً: ج12، ص263.

(280) المرجع نفسه، ج6، ص136.

(281) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص87.

عن المتكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات قال: وقيل أراد نفسه والأول مقحم لقوله (وأصرف) وليس بشيء بل المعنى أني كنت أكتسب لهم ما يأكلونه والآن اكتـسب للمسلمين"(282).

ج. الإضمار والإظهار:

وذلك متمثل في قوله: "بعث إلى نسيبة الأنصارية بشاه... وكـان الـسياق يقتضي أن يقول (بعث إلي) بلفظ ضمير المتكلم المجرور، كما وقع عند مسلم طريق ابن علية عن خالد، لكنه في هذا السياق وضع الظاهر موضع المضمر إما تجريـدا وإما التفاتا"(283).

وهو كما أسلفنا يكتفي في كل النماذج السابقة بالإشارة المجردة دون الغوص فيما وراء الإعراض عن الغيبة إلى الخطاب أو العكس.

2. الصيغ:

ويكون بتخالف صيغ الأفعال أو الأفعال مـع الأسـماء: ومـن ذلـك قـول العسقلاني: قوله فنظرت هذا فيه التفات فان السياق الماضي يقتضي أن يقول فنظـر لقوله " فبينما أبي مع أصحابه فالتقدير: قال أبي فنظرت"(284).

ومنه أيضاً:

قوله إن رسول ا -صلى ا عليه وسلم- عرضه يوم أحد وهو ابن أربـع عشرة سنة فلم يجزني فيه التفات أو تجريد إذ كان السياق يقتضي أن يقول فلم يجزه لكنه التفت أو جرد من نفسه أولا شخصا فعبر عنه بالماضـي ثـم التفـت فقـال عرضني)(285).

3. العدد:

يحفل العسقلاني في شرحه بالعديد من مواطن الالتفات فـي مجـال العـدد (الإفراد، التثنية، الجمع) ونتوقف فيما يلي إزاء بعض المواطن:- يقول العـسقلاني:

---

(282) العسقلاني، فتح الباري، ج4، ص262؛ وانظر: ج6، ص131.

(283) المرجع نفسه، ج3، ص267,

(284) المرجع نفسه، ج4، ص22.

(285) المرجع نفسه، ج5، ص235، ج9، ص120، ج6، ص518.

"قوله: قالتا ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين...قال ابن عطيـة: أراد الفـرقتين المذكورتين جعل السماوات سماء والأراضين أرضاً ثم ذكر لذلك شاهد وهـي فـي غفلة منه فانه لم يتقدم قبل مثل ذلك إلا لفظ سماء مفرد ولفظ أرض مفرد نعم قولـه طائعين عبر بالجمع بالنظر إلى تعدد كل منهما وعبر بلفظ جمع المذكر من العقـلاء لكونهم عوملوا معاملة العقلاء في الإخبار عنهم"(286).

" قوله في أنفسكما من قوله (إني خشيت أن يلقي في أنفسكما شيئا) هو مثـل قوله في الرواية الأخرى في قلوبكما وإضافة لفظ الجمع إلى المثنى غيـر مـسموع كقوله تعالى (فقد صغت قلوبكما)" (287).

وتقتصر إشارة العسقلاني أحيانا إلى الإشارة العابرة السريعة، كقولـه فيـه التفات، دون تحديد لمجال ذلك الالتفات،أو إلى الإغفال الكلي لهذه الظـاهرة، ومـن أمثلة ذلك قوله "إن رفاعه طلق امرأته فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير القرظي قالت عائشة وعليها خمار اخضر فشكت إليها" أي إلى عائشة وفيه التفات وتجريد"(288).

ومنه أيضاً "قوله فأذن لي فدخل كذا فيه ،وهو تكرار لهذه اللفظـة لوجـود الفصل أو التفات"(289).

ومما أغفله العسقلاني وهو كثير(290). قول أبي بكر لرسول الله -صـلى الله عليه وسلم- "فرأيت البراء يضرب إحدى يديه على الأخرى ينفض. فحلب في قعب كثبة من لبن ومعي اداوة حملتها للنبي -صلى الله عليه وسلم- يرتوي منها يـشرب ويتوضأ، فأتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- فكرهت أن أوقظـه، فوافقتـه حـين استيقظ فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله فقلت اشـرب يـا رسـول الله فشرب حتى رضيت"(291).

---

(286) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص479.

(287) المرجع نفسه، ج4، ص244.

(288) المرجع نفسه، ج10، ص239.

(289) المرجع نفسه، ج11، ص242.

(290) المرجع نفسه، ج1، ص258، ج6، ص114، 390، ج12، ص120.

(291) المرجع نفسه، ج6، ص519.

وحدث الالتفات في العبارة الأخيرة (فشرب حتى رضيت) ولو لـم يحـدث الالتفات لقال: فشرب حتى رضي ولكن الضمير في حالة التكلم يؤدي دوراً مختلفـاً عنه في حالة الغياب، فالتكلم يجسد حالة من الحضور، والغياب يمثل حالة التلاشي أو التهميش وعليه فالتحول من ضمير الغائب إلى ضمير التكلم يأتي خادماً للموقف، والموقف يمثل حالة الخروج القسري التي عاشها الرسول -صلى ا عليه وسـلم- والصديق (أبو بكر) من مكة.

ويحمل هذا الموقف في طياته حمى الهذيان واضطراب الـرؤى، وقابلهمـا التلاعب اللفظي، أو تبادل الضمائر فالذات المتجسدة في هذا الـنص ذات جريحـة، تلجأ إلى الاستعاضة عن البوح بالحنين إلى الوحدة، والامتزاج مع الآخر، واثبـات الوجود وتعزيز الذات التي باتت مهددة في الواقـع المعيـشي، وأجـواء التحـدي والطموح والرغبة في الانتصار، أجواء حاضرة أو لنقل قيـد التحـضير تناسـبها ضمائر التكلم والحضور لا ضمائر الغائب وعليه فالتحول الحاصـل فـي العبـارة المطروحة (فشرب حتى رضيت) تحول مقصود يحمل رؤية ما.

ومن أمثلته أيضاً:

قول النبي -صلى ا عليه وسلم-: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا ا فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على ا "(292).

يمثل التحول الأسلوبي هنا في الانتقال من ضمير الجمع (يقولوا) إلى ضمير المفرد (قالها) فالتحول يخرج إلى تجربة أشمل يرسم واقع قضية تتعلـق بحاضـر الإسلام ومستقبله فكانت البداية بضمير الجمع وهو ضمير يوحي بالاحتشاد والكثرة والفئات المتعددة الاتجاهات والهوى والتي تغمرهم الحيرة ويغلفهم التيه وهـذا كلـه تجسيد للواقع المعاش قبل الإسلام.

ثم كانت المنارة الكاشفة للطريق الموحد والمرجع الواحـد القاتـل للحيـرة والأهواء كلمة "لا اله إلا ا " المتجسدة على لسان النبي محمـد -صـلى ا عليـه وسلم- والقاتلة لأصوات عدة فاعلة عبر تاريخ الحيـاة والراسـمة لبدايـة موحـدة

---

(292) العسقلاني، فتح الباري، ج3، ص227.

للانتصار المنتظر للإسلام والمسلمين والتحليل السابق يكشف التماهي الواضح فـي بناء الضمائر مع المقصدية المبتغاة.

ومثل هذه اللمسات نجدها لدى العسقلاني في شرحه لكنك تلحظ مدى إفـادة العسقلاني من علماء البلاغة متمثلا بأبي عبيدة والطيبي والبيضاوي.

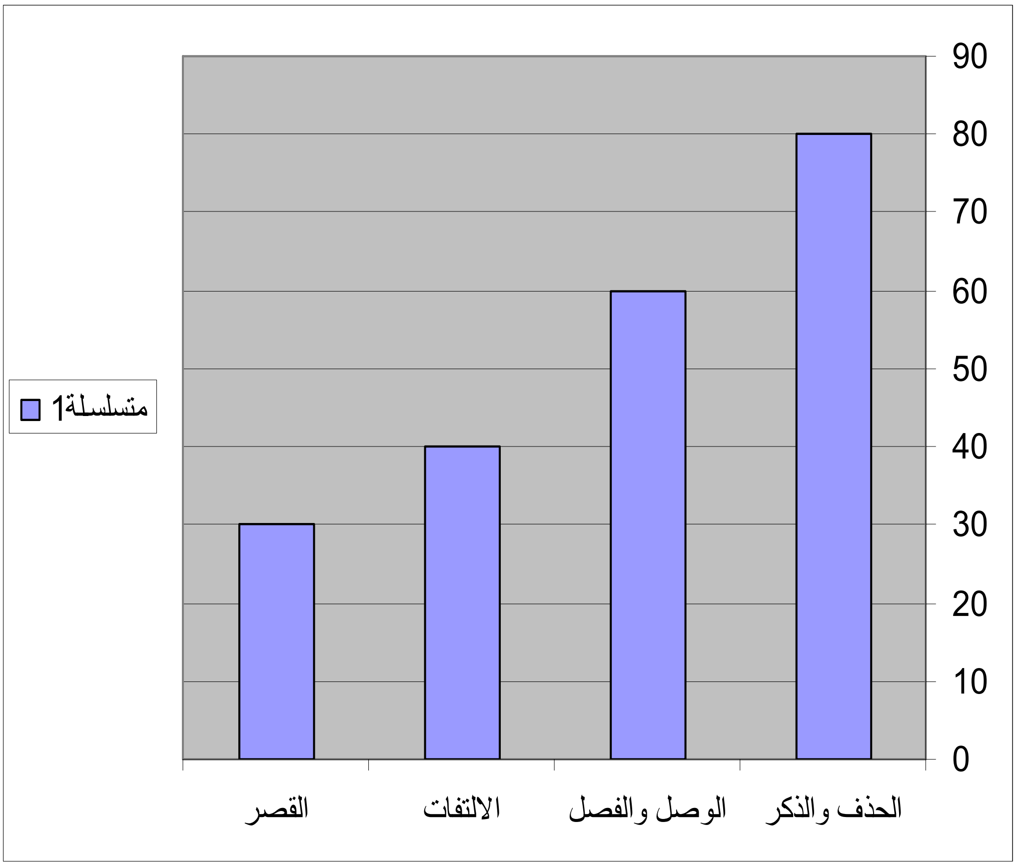
يقول العسقلاني: "(قوله آل أبي بكر) أي هو نفسه ومن يلزمه نفقتـه، وقيـل أراد نفسه بدليل قوله (أحترف) حكاه الطيبي قال ويدل عليه نسق الكلام؛ لأنه أسـند الاحتراف إلى ضمير المتكلم عاطفاً له على (فسيأكل) فلو كان المراد الأهل لتنـافر انتهى وجزم البيضاوي بأنه قوله (آل أبي بكر) عدول عن المتكلم إلى الغيبة علـى طريق الالتفات قال وقيل: أراد نفسه والأول مقحم لقوله (وأحترف) وليس بشيء بل المعنى أني كنت اكتسب لهم ما يأكلونه والآن اكتسب للمسلمين.

قال الطيبي: فائدة الالتفات أنه جرد من نفسه شخصا كسوباً لمؤنـة الأهـل بالتجارة فامتنع لشغله بأمر المسلمين عن الاكتساب وفيه إشعار بالعلة.

وأن من اتصف بالشغل المذكور حقيق أن يأكل هو وعياله من بيـت المـال وخص الأكل من بين الاحتياجات لكونه أهمها ومعظمها.

قل ابن التين: وفيه دليل على أن للعامل إن يأخذ من عرض المال الذي يعمل فيه قدر حاجته إذا لم يكن فوقه إمام يقطع له أجرة معلومة وسبقه إلى ذلك الخطابي قلت: لكن في قصة أبي بكر أن القـدر الـذي يتناولـه فـرض لـه باتفـاق مـن الصحابة"(293)

(293) العسقلاني، فتح الباري، ج4، ص262؛ وانظر: ج13، ص428–429.



من خلال مقارناتنا لمجالات علم المعاني تجمع لدينا بعض الملاحظات العامة منها:

أولاً: الاختلاف في التوزيع العددي العام لهذه المجالات:

ثانياً: إن ظاهرتي الحذف والذكر والفصل والوصل احتلتا النصيب الأكبر في فتح الباري، وهذا يعني أنه يوازن بين الموضوعات المختلفة في اهتمامه أكثر من اعتماده على الموضوعات الثابتة كالالتفات والقصر، وهذا الأسلوب مما لا شك فيه يوفر غنى بلاغياً كبيراً للشرح.

ثالثاً: إن الاهتمام بهذه المجالات يتباين من مجلد إلى آخر، فبينما كان الاهتمام كبيراً بهذه المجالات في المجلدات من (1-7) تراجع الاهتمام بها في المجلدات من (8-14).

رابعاً: كانت وقفاته عند هذه المجالات سريعة خاطفة -في الأغلب الأعم منها- يغيب عنها الطابع التأويلي المحدد للمغزى النصي.

الفصل الثالث
علم البيان

1.3 علم البيان

مع اتساع معارف الإنسان وتطور الحياة، أصبحت اللغة بأنماطها التقليدية لا تلبي حاجات الإنسان الفكرية والنفسية الجديدة، فأهملت لغة التخاطب في الحياة اليومية، واستدار الإنسان ليمزج ما بين مخزون ذاكرته، وما استجد من حاجات طارئة متجددة، فوصل إلى لغة تقرن الإفادة بالإجادة، لغة تحوي المفارقات الملفتة، والمجاز الزاخر، لتحقق بهذا المستوى الأعلى المطلوب للغة أو لتتجاوز على حسب مصطلح بارت درجة الصفر التعبيرية، فاستقر علم البيان بكلّ تجلّياته في طروحات المفسرين والشارحين،و أصحاب الدراسات البلاغية خاصة.

وشكّل الولوج إلى مفهومي الفصاحة والبلاغة، إحدى الركائز الهامة التي استند إليها البلاغي لتقديم تأصيل لمفهوم البيان وتحليله على أسس وأدوات بينه تمتحن مدى أصالته، وكان الميدان الأول لعلم البيان هو "الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عُقله"[294].

وانتهى بالجمع ما بين الشكل والمعنى في مفهوم السكاكي: "إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة"[295]. وهذه الطرق هي:

1.1.3 التشبيه:

وهو فن من فنون البيان، والعنصر الأسبق منها، يقول علي الجندي: "ولقائل أن يقول:إن التشبيه أقدم صور البيان إذ هو مبني على ما تحمله النفس من اشتراك بعض الأشياء في وصف خاص يربط بينها، ولهذا يقول (سبيرمان) -العالم النفسي الإنجليزي- إن الأساس النفسي الذي يقوم عليه التشبيه وغيره من الأساليب البيانية

---

(294) ابن رشيق، محمد بن أحمد، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، ج1، ص169.

(295) السكاكي، مفتاح العلوم، ص77.

من حيث تأليفها وإدراكها هو في الواقع عملية أساسية في التفكير، تلك هي ما بـين بعض الأشياء وبعض من تشابه وعلاقات، فالتشبيه في حقيقة أمره قياس، والقياس – كما يقول عبدالقاهر- يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول، وتستفتي فيه الأفهـام والأذهان لا الأسماع والآذان"[296].

وعلى الرغم من أسبقيته، إلاّ أن إشكالية تحديد مفهومه تحديداً قطعياً، امتدت عبر ميادين البلاغة القديمة والحديثة.

فالسكاكي التمس طريقه في فهمه للتشبيه من خـلال مـستويات التـشبيه أو أركانه، يقول: "لا يخفى عليك أن التشبيه مستدعٍ لطـرفين، مـشبهاً ومـشبهاً بـه، واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر"[297].

أما القزويني فاعتبره (مشاركة أمر لآخر في معنى) [298].

وجاء عبدالقادر حسين ليمزج ما بين المفهومين السابقين وليخرج بقوله إنـه: "الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى، فالأمر الأول المشبه والثاني هو المـشبه به، ويسميان طرفين، والمعنى المشترك بينهما هو وجه الشبه، ولا بد من شيءٍ يدلّ على التشبيه وهو الأداة"[299].

أما العسقلاني في فتح الباري، فإننا نستطيع بتجميع آرائه عبر مجلدات فـتح الباري أن تخرج بمفهوم له –ربما يكون هو الأشمل- للتشبيه،وإن كان لا يخرج عن إطار فهم من سبقه إلى ذلك، فهو يرى أن التشبيه "مشاركة بين المـشبه والمـشبه

---

(296) الجندي، علي، فن التشبيه، دار النهضة، مصر، (د.ت)، ص45.

(297) السكاكي، مفتاح العلوم، ص332.

(298) القزويني، الإيضاح، ج4، ص16.

(299) حسين، عبدالقادر، القرآن إعجازه وبلاغتـه، مطبعـة الأمانـة، مـصر، ط1، ص117.

به"[300]. لكنها مشاركة لا تستلزم "التسوية من كل جهة"[301]. هدفها "تصوير المعنى في النفس"[302].

ومن خلال ما سبق نرى أن التشبيه ما هو إلا التقاء ما بين دالين (مفردها دال) أو أكثر في مدلول ما، عبر أداة ترسم نقاط ذلك الالتقاء مرئية أو مخفية، طاوياً ما بين دفتيه رؤية ما يريد المرسل إيصالها إلى المتلقي.

وقد عرض العسقلاني لكثير من قضاياه، وهو يتناول الأحاديث النبوية بالشرح والتوضيح، ونظراً لأن همته كانت متجهة في المقام الأول صوب الجانب الفقهي، فإنّه يمر بالتشبيه مروراً سريعاً، ويلقي عليه نظرات عابرة، نجد ذلك في شرحه لقول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً". "قوله ولو حبواً أي يزحفون إذا منعهم مانع من الشيء كما يزحف الصغير"[303]. وهو يشبه زحف المصلين إلى الصلاتين بزحف الصغير ،دليل على عظم الأجر المترتب عليهما

ومنه أيضاً قوله في الحديث النبوي :" عن ابن عمر رضي ا عنه قال: قال رسول ا - صلى ا عليه وسلم- : أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولا تحت ورقها، فوقع في نفسي النخلة ... قال النبي صلى ا عليه وسلم: هي النخلة... والمثل بالتحريك ما يضرب من الأمثال، ووجه الشبه بين المسلم والنخلة من جهة عدم سقوط الورق"[304].

فقوله عدم سقوط الورق إشارة إلى وجه الشبه بين المسلم والنخلة دون تفصيل لأركانه، وهو قاصر عن الوفاء بحق هذا التشبيه، لأن التشبيه بالنخلة ليس في عدم السقوط وحده، بل في العلو، والثبات، والتجذر، والبقاء.

---

(300) العسقلاني، فتح الباري، ج11، ص319.

(301) المرجع نفسه، ج2، ص35.

(302) المرجع نفسه، ج3، ص503.

(303) العسقلاني، فتح الباري، ج2، ص123.

(304) المرجع نفسه، ج1، ص133.

وقد يغفل بعض الشبيهات فيتركها دون بيان أو توضيح، فمثلاً نجـده عنـد شرحه، لقول الرسول :" ...سمعت السائب بن يزيد يقول : ذهبت مع خـالتي إلـى النبي – صلى ا عليه وسلم- فقالت : يا رسول ا ، إن ابن أختـي وقـع، فمـسح رأسي ودعا لي بالبركه، ثم توضأ فشربت من وضوئه، ثم قمـت خلـف ظهـره، فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة "[305].

فهو لم يذكر شيئاً عن تشبيه خاتم النبوة ببيضة الحجلة مـن حيـث الـشكل والحجم.

ومنه أيضاً إغفاله لقول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "اعتدلوا في الـسجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب[306]، فهو أيضاً لم يذكر شـيئاً عـن تـشبيه افتراش المصلي والتهاون في أداء صلاته بافتراش الكلب تشويهاً للمشبه.

ومع هذا نجده أحياناً يغوص على بعض القضايا البيانية وخاصة التـشبيهية، فهو يتوقف لدى أركان التشبيه وأقسامها.

1.1.1.3 أقسام التشبيه باعتبار طرفي التشبيه:

الطرفان بين المحسوس والمعقول:

ترددت كلمات المحسوس، والمعقول في شرح العسقلاني، بعضها في مواضع بعيدة عن التشبيه، وبعضها في أثناء تناوله لتشبيهات الأحاديث النبويـة، وسـأتناول بعون ا تعالى بعض هذه الأنواع التي عرض لها:

أولاً: تشبيه المحسوس بالمحسوس:

وردت كلمة المحسوسات في كلامه، وهو يتناول صفات الشهداء مـن أمـة محمد عليه السلام في الجنة، وأراد بالحسيات الصفات الحسية التي تدل على فـرط تألقهم، فقد قال العسقلاني وهو يلقي الضوء على التشبيه في القول النبوي: "... ناس

([305]) المرجع نفسه، ج1، ص267.

([306]) العسقلاني، فتح الباري ، ج2، ص262؛ وانظر أيـضاً: ج2، ص124، 183، 242، 347، 349، 401، 440؛ وانظر أيضاً: ج5، ص33.

من أمتي عُرضوا علي غزاة في سبيل ا ، يركبون ثبج هذا البحـر ملوكـاً علـى الأسرة أو قال مثل الملوك على الأسرة".

"موقع التشبيه أنهم فيما هم فيه من النعيم الذي أثيبوا به على جهـادهم مثـل ملوك الدنيا على أسرتهم، والتشبيه بالمحسوسات أبلغ في نفس السامع"[307].

وواضح أن الطرفين في هذا التشبيه وهما: الشهداء، والملـوك، مـن قبيـل المحسوس، وقد بين أن تشبيههم بالملوك من جهة الشعور بالترف والنعيم، والتشبيه بالمحسوسات أبلغ في نفس السامع -كما أشار العسقلاني-، وذلك لأن الإنسان فطـر على الميل إلى كل شيء واقعي، ماثل أمام عينيه .

ثانياً: تشبيه المحسوس بالمعقول:

كثر في الحديث النبوي تشبيه المعقول بالمحسوس أو العكس، وقـد عـرض العسقلاني لتشبيهات من هذا النوع وذلك في عدة مواضع منها: ما جاء فـي قـول النبي –صلى ا عليه وسلم- "أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كـل يـوم خمساً ما يقول في ذلك،أيبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا، لا يبقى من درنه شيئاً".

وهنا يقول العسقلاني "فائدة التمثيل التأكيد، وجعل المعقول كالمحسوس، قـال الطيبي: في هذا الحديث مبالغة في نفي الذنوب لأنهم لم يقتصروا في الجواب علـى لا، بل أعادوا اللفظ تأكيداً، وقال ابن العربي: وجه التمثيل أن المرء كمـا يتـدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب حتى لا يبقى له ذنباً إلا أسقطته، وظاهره أن المراد بالخطايا فـي الحديث ما هو أعلم من الصغيرة والكبيرة، ولكن قال ابن بطال: يؤخذ من الحـديث أن المراد الصغائر خاصة لأنه شبه الخطايا بالدرن صغير بالنسبة إلى ما هو اكبـر من القروح، والخراجات وهو مبني على أن المراد بالدرن فـي الحـديث الحـب، والظاهر أن المراد به الوسخ، لأنّه هو الذي يناسبه الاغتسال والتنظيف"[308].

وتكلم عن هذا التنظيف من عدة عناصر:

1. فائدته وثمرته وهي التأكيد.

---

(307) المرجع نفسه ج11، ص62.

(308) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص11.

2. وجه الشبه: وفيه يظهر مدى اعتماده على آراء الشراح الذين سبقوه أمثال الطيبي، وابن العربي، وابن بطال، وحصرهم له بالطهارة والتكفير.
3. طرفا التشبيه: يلاحظ أنه لم يصرح بذكر الطرفين في هذا التشبيه، وإن أمكن فهمهما من خلال حديثه عن وجه الشبه، ويمكن إلقاء مزيد من الضوء عليهما، فأقول: المشبه هو: الصلوات الخمس التي تذهب السيئات، والمشبه به: الماء الطاهر،الذي يذهب الأقذار والأوساخ.

ومن أمثلته أيضاً: قول العسقلاني "كان النبي في رمضان... أجود بالخير من الريح المرسلة...فيه جواز المبالغة في التشبيه، وجواز تشبيه المعنوي بالمحسوس ليقرب لفهم سامعه، وذلك أنّه أثبت له أولاً وصف الأجودية ،ثم أراد أن يصفه بأزيد من ذلك، فشبه جوده بالريح المرسلة، بل جعله أبلغ في ذلك منها، لأن الريح قد تسكن"[309].

ويلاحظ أنّه لم يصرح بطرفي التشبيه، ولا بوجه الشبه، مع إشادته بجماليته وبلاغته، والمشبه هو الجود أو الكرم النبوي، والمشبه به هي الريح المرسلة، ووجه الشبه تواصل العطاء بشكل دائم، وهو ما توحي به أفعل التفضيل "أجود" الواردة في القول النبوي.

ومن أمثلته أيضا:

قوله في حديث النبي –صلى الله عليه وسلم-: "... ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشي.....قوله إيماناً، قال البيضاوي: لعلّ ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيراً، كما مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط، وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس"[310].

ثالثاً: تشبيه المحسوس بالخيالي:

إن الخيالي هو المعدوم أو المغيب، وقد أورد العسقلاني تشبيه المحسوس بالخيالي عند شرحه لقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: "لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها .... قوله خير من الدنيا وما فيها، قال ابن دقيق

---

[309] العسقلاني، فتح الباري، ج9، ص39.

[310] المرجع نفسه، ج4، 102

العيد: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس تحقيقاً له في النفس، لكون الدنيا محسوسة في النفس مستعظمة في الطباع، فلذلك وقعت المفاضلة بها، وإلاّ فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوي ذرة مما في الجنة..." (311).

ومن هذا النوع من التشبيه ما ذكره في شرح قول النبي –عليه الصلاة والسلام-: "إن من البيان لسحراً، أو إن بعض البيان سحر.........والبيان اثنان: أحدهما: ما تقع به الإبانة عن المراد بأي وجه كان، والآخر: ما دخلته الصنعة بحيث يروق للسامعين ويستميل قلوبهم، وهو الذي يشبه بالسحر إذا خلب القلب وغلب على النفس حتى يحول الشيء عن حقيقته ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظر في معرض غيره، وهذا إذا صرف إلى الحق يمدح، وإذا صرف إلى الباطل يذم، قال: فعلى هذا فالذي يشبه بالسحر منه هو المذموم، وتعقب بأنه لا مانع من تسمية الآخر سحراً، لأن السحر يطلق على الاستمالة كما تقدم تقريره في أول باب السحر، وقد حمل بعضهم الحديث على المدح والحث على تحسين الكلام وتحبير الألفاظ، وهذا واضح إن صح أن الحديث ورد في قصة عمرو بن الأهتم، وحمله بعضهم على الذم لمن تصنّع في الكلام، وتكلف لتحسينه وصرف الشيء عن ظاهره، فشبه بالسحر الذي هو تخييل لغير حقيقة"(312).

وتراني اقتنع بهذا التحليل والاسم كثيرا، ولا سيما أنه جعل التشبيه السابق ضمن قائمة التشبيه الخيالي لا الوهمي، فالسحر له علاماته الواضحة التي تتجلى للعيان، وتدرك بالحواس، لكن لا هيئة له، ولا حقيقة لماهيته.

والعتب الأكبر من قائمة هذا التشبيه، يقع على عاتق العسقلاني، من خلال غفلته عن التصريح بنوع التشبيه الوارد في قول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين.....يقول العسقلاني: ووقع في رواية عمرة عن عائشة ،فإذا نخلها الذي يشرب من مائها قد التوى سعفه، كأنه رؤوس الشياطين

---

(311) المرجع نفسه، ج6، ص12.

(312) العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص202.

وقد وقع تشبيه طلع شجرة الزقوم في القرآن برؤوس الشياطين، قال الفـراء وغيره: يحتمل أن يكون شبه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين، لأنهـا موصـوفة بالقبح، وقد تقرر في اللسان أن من قال: فلان شيطان، أراد أنه خبيث أو قبيح، وإذا أقبحوا مذكراً قالوا شيطان، أو مؤنثاً قالوا :غول، ويحتمل أن يكون المراد بالشياطين الحيات، والعرب تسمي الحيات شيطاناً وهو ثعبان قبيح الوجه، ويحتمل أن يكـون المراد نبات قبيح قيل إنه يوجد باليمن"[313].

لقد أثار حديثه عن تشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين بعض القضايا الجديرة بالإيضاح والتفصيل:

أولاها: تأثره بالسابقين، وإفادته منهم:

يبدو في مطلع حديثه عن هذا التشبيه أنه يحكي آراء غيره، وهذا ظاهر مـن قوله: قال الفراء وغيره، والواقع أن هذا التشبيه حظي بما لم يحظ به أي تشبيه آخر من عناية العلماء واهتمامهم، حتى أنه يمكن القول بأنّـه أشـهر التـشبيهات علـى الإطلاق، ولست هنا بصدد التأريخ لما كتب عنه، فذلك خارج عن مجـال البحـث ولكني أود أن أسجل هنا كلام السابقين الذين ظهر تأثره بهم وترددت كلمـاتهم فـي ثنايا كلامه، وقد جاءت هذه الآراء الثلاثة في كتاب معاني القرآن للفراء _كما أشار العسقلاني _الذي ختم بعد استعراضه للآراء الثلاثة بقوله: "والأوجه الثلاثة تـذهب إلى معنى واحد وهو القبح"[314]. وهذا ما يؤكد أن هذا التشبيه يقع ضمن التخيلي لا المحسوس، والآراء ذاتها تكررت لدى اللاحقين، الذين عبر عنهم العسقلاني بقولـه "الفراء وغيره" وهم ابن قتيبة[315]، والزمخشري[316]، والطبري[317].

([313]) العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص196.

([314]) الفراء، يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجـاتي وآخـرين، الهيئـة المصرية، القاهرة، (د.ت)، ط1، ج2، ص387.

([315]) ابن قتيبة، محمد بن أحمد، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: أحمـد صـقر، دار التـراث، القاهرة، 1973م، ط2، ص388-390.

([316]) الزمخشري، جار ا ، الكشاف، ج3، ص302.

وتقديم العسقلاني للرأي الأول، يدلّ على أنّه المفضل عنده، وحكى الـرأيين الآخرين بصيغة التمريض (يحتمل) التي تدل على ضعف المقول بعدها، ومما يشكر للعسقلاني إلمامه واستيعابه لكلام السابقين وإضفائه عليه من أسلوبه وبيانه، ويكفيـه أمانة أنّه مقر بإفادته منهم، وأخذه عنهم.

ثانيهما: إن في إغفال العسقلاني للتصريح بأن هذا التشبيه يقع ضمن التشبيه التخيلي: إبرازاً لأدبيته: وحرصه على الإلمام بمواطن الجمال، لا على الجري وراء المصطلحات والحدود القاتلة، أو لعله متأثر بصنيع السكاكي الذي ألحـق الخيـالي بالحسيات والوهمي بالعقليات[318].

التشبيه باعتبار الإفراد والتركيب:

قد يجتمع في الكلام تشبيه شيء بشيء، ويبقى كل تشبيه قائماً بذاته، وهذا ما يعرف بالتشبيه المفرد، ويعرفه العسقلاني بقوله: "تشبيه شيء بـشيء إذا جمعهمـا وصف خاص ولو تباينا في الصورة"[319].

وقد شرح العسقلاني تشبيهات من هذا القبيل ،منها قول النبي –عليه الـصلاة والسلام-:الحمو الموت..،يقول: "قوله (الحمو الموت)... قال القرطبي في "المفهم": "المعنى أن دخول قريب الزوج على امرأة الزوج يـشبه المـوت فـي الاسـتقباح والمفسدة، أي فهو محرم معلوم التحريم، وإنما بالغ في الزجر عنه وشبهه بـالموت لتسامح الناس به من جهة الزوج والزوجة لألفهم بذلك، حتى كأنه ليس بأجنبي مـن المرأة، فخرج هذا مخرج قول العرب: الأسد الموت، والحرب المـوت، أي لقـاءه يفضي إلى الموت، وكذلك دخوله على المرأة قد يفضي إلى موت الدين أو إلى موتها بطلاقها عند غيرة الزوج أو إلى الرجم إن وقعت الفاحشة، وقال ابـن الأثيـر فـي النهاية: المعنى أن خلوة المحرم بها أشد من خلوة غيره من الأجانب، لأنّـه ربمـا حسن لها أشياء وحملها على أمور تثقل على الزوج من التماس ما ليس في وسعه...

---

(317) الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القـرآن، مكتبة البابي الحلبي، ط3، 1968م، ج23، ص63-64.

(318) السكاكي، مفتاح العلوم، ج1، ص158.

(319) العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص206.

الحمو الموت، أي لا بد منه ولا يمكن حجبه عنها، كما أنّه لا بد من الموت، وأشار إلى هذا الأخير الشيخ تقي الدين في شرح العمدة"[320].

وهو في حديثه السابق ينقل آراء علماء البيان في تأويل هذا التـشبيه دون أن يشير إلى أفضلية أحد الأقوال على الآخر، وإن سُمح لنا بهذا قلنا ربما يكون تأويـل القرطبي هو الأفضل؛ لأنّه أردف تفضيله للتشبيه بمقولات من واقع الكلام العربـي تثبت ما ذهب إليه.

ومن أمثلته أيضاً: ما قاله في الحديث النبوي عن الصراط: "وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول ا ، قال: فإنهـا مثـل شوك السعدان غير أنها لا يعلم عظمها إلاّ ا ..يقول:... قال الزين بـن المنيـر: تشبيه الكلاليب بشوك السعدان، خاص بسرعة اختطافها، وكثرة الانتشاب فيها مـن التحرز والتصون، تمثيلاً لهم بما عرفوه في الدنيا، وألفوه بالمباشرة"[321].

وقد يجتمع في الكلام أكثر من مشبه، ومشبه به، وفي هـذه الحالـة يعـرف التشبيه بالتشبيه المركب، ومن أمثلته لدى العسقلاني:

"قولها زوجي لحم جمل غث على رأس جبل، لا سهل فيرتقـى، ولا سـمين فينتقل،... لقد أودعت كلامها تشبيه شيئين بشيئين شبهت زوجهـا بـاللحم الغـث، وشبهت سوء خلقه بالجبل الوعر، ثم فسرت ما أجملت فكأنها قالت: لا الجبل سهل، فلا يشق ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلاً، لأن الشيء المزهود فيه قد يؤخـذ إذا وجد بغير نصب، ثم قالت: ولا اللحم سمين فيتحمل المشقة في صعود الجبل لأجـل تحصيله"[322].

ومنه أيضاً قوله في الحديث النبوي: "مثل البيت الذي يذكر ا فيه والـذي لا يذكر ا فيه، مثل الحي والميت..... شبه الذاكر بالحي الذي ظاهره متزين بنـور الحياة ،وباطنه بنور المعرفة، وغير الذاكر بالبيت الذي ظاهره عاطل وباطنه باطل،

---

(320) المرجع نفسه، ج9، ص284.

(321) العسقلاني، فـتح البـاري، ج11، ص388؛ وانظـر أيـضاً: ج11، ص88، ج13، ص257، ج2، ص162، ج7، ص129.

(322) المرجع نفسه ، ج9، ص221.

وقيل موقع التشبيه بالحي والميت، بما في الحي من النفع لمن يواليه، والضر لمن يعاديه، وليس ذلك في الميت"[323].

وقد يجمع الكلام أكثر من تشبيهين، ونكون عندئذٍ قد دخلنا إلى التشبيه المتعدد:

ومن أمثلته قول العسقلاني في الحديث النبوي: "تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها".

يقول: "... قال القرطبي والحاصل تشبيهه من يتفلت منه القرآن بالناقة التي تفلتت من عقالها، وبقيت متعلقة به كذا قال، والتحرير أن التشبيه وقع بين ثلاثة بثلاثة: فحامل القرآن شبه بصاحب الناقة، والقرآن بالناقة، والحفظ بالربط، قال الطيبي: ليس بين القرآن والناقة مناسبة لأنه قديم، وهي حادثة لكن وقع التشبيه في المعنى"[324].

ومنه أيضاً شرحه لقوله تعالى: "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ......يقول: وهي ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار لا ينتفع به كذلك يضمحل الباطل عن أهله، وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأمرعت وأخرجت نباتها، كذلك يبقى الحق لأهله ونظيره بقاء خالص الذهب والفضة إذا دخل النار، وذهب خبثه وبقي صفوه، كذلك يبقى الحق لأهله ويذهب الباطل"[325].

ومن أمثلته قول النبي –صلى الله عليه وسلم-: "إن هذا المال خضرة حلوه، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يُلم؛ إلا آكلة الخضرة.... ... قال الطيبي: يؤخذ منه أربعة أصناف: فمن أكل منه أكل مستلذٌ مفرط منهمك حتى تنتفخ أضلاعه، ولا يقلع فيسرع إليه الهلاك، ومن أكل كذلك لكنه أخذ في الاحتيال لدفع الداء بعد أن استحكم فغلبه فأهلكه، ومن أكل كذلك لكنه بادر إلى إزالة ما يضره

---

(323) المرجع نفسه، ج11، ص176.

(324) العسقلاني، فتح الباري، ج9، ص71.

(325) المرجع نفسه، ج8، ص320.

(2) المرجع نفسه، ج11\209

وتحيل في دفعه حتى انهضم فيسلم، ومن أكل غير مفرط ولا منهمك وإنما اقتصر على ما يسد جوعته ويمسك رمقه، فالأولى مثال الكافر، والثاني مثال العاصي الغافل عن الإقلاع والتوبة، والثالث مثال للمخاط المبادر للتوبة، حيث تكون مقبولة، والرابع مثال الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة... وقال الزين بن المنير: في هذا الحديث وجوه من التشبيهات بديعة: أولها تشبيه المال ونموه بالنبات وظهوره، ثانيها تشبيه المنهمك في الاكتساب والأسباب بالبهائم، المنهمكة في الأعشاب، وثالثها تشبيه الاستكثار منه والإدخار به بالشره في الأكل والامتلاء منه، ورابعها تشبيه الخارج من المال مع عظمته في النفوس حتى أدى إلى المبالغة في البخل بما تطرحه البهيمة من السلا، ففيه إشارة بديعة إلى استقذازه شرعاً، وخامسها تشبيه المتقاعد عن جمعه وضمه بالشاة إذا استراحت وحطت جانبها مستقبلة عين الشمس ،فإنها من أحسن حالاتها سكوناً وسكينة، وفيه إشارة إلى إدراكها لمصالحها، وسادسها تشبيه موت الجامع المانع بموت البهيمة الغافلة عن دفع ما يضرها ،وسابعها تشبيه المال بالصاحب الذي لا يؤمن أن ينقلب عدواً"[326].

وهذا الجمع المرهق لتعدد تأويلات النص النبوي يعتبر لفتة كريمة تسجل للعسقلاني بالثناء الجميل، وإن كنت أرى أنه ينبغي أن يسجل له بصمة ضمن تلك القائمة ،كأن يرجح رأي الطيبي مثلا.

ومن أمثلته قول العسقلاني في شرح قول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "مثل الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح فيها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانه ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة طعمها مر، ولا ريح لها.

الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة لأنه يتداوى بقشرها وهو مفرح بالخاصية، ويستخرج من حبها دهن له منافع، وقيل: إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترجة، فناسب أن

([326]) العسقلاني، فتح الباري، ج11، ص209.

يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين، وغلاف حبه أبيض فناسب قلب المـؤمن، ومنها أيضاً من المزايا كبر جرمها وحسن منظرها وتفريح لونها ولين ملمسها، وفي أكلها مع الالتذاذ طيب نكهه ودباغ معدة وجودة هضم ووقع في رواية شعبة "المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به" وهي زيادة مفسرة للمراد، وأن التمثيل وقع بالذي يقـرأ القرآن، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهي لا مطلق التلاوة، فإن قيل: لو كان كذلك لكثر التقسيم كأن يقال الذي يقرأ ويعمل والـذي يعمـل ولا يقـرأ و عكسه، والأقسام الأربعة ممكنة في غير المنافق، وأما المنافق فليس له إلا قـسمان فقط لأنه لا اعتبار بعمله إذا كان نفاقه نفاق كفر، وكأن الجواب عن ذلك أن الـذي حذف من التمثيل قسمان: الذي يقرأ و لا يعمل، والذي لا يعمل ولا يقـرأ، وهمـا شبيهان بحال المنافق فيمكن تشبيه الأول بالريحانة، والثاني كالحنظلة، فأكتفي بـذكر المنافق، والقسمان الآخران قد ذكرا"[327].

وربما تكون البصمة التي نسي العسقلاني عن الإشارة إليها، هي جمالية هذا التشبيه، والتي تكمن في الجمع ما بين المتناقضات ما بين القمة (المؤمن القـارئ)، وما بين الحضيض(المنافق غير القارئ)، وإشعال وتيرة الحواس جميعها المرئيـة والشمية والذوقية، يقول أحمد ياسوف: "فالقمة في هذا النص يمثلها المؤمن القـارئ والحضيض يمثله المنافق غير القارئ، وخلال هذين قدم الحـديث لوحـة متعـددة المشاهد قائمة على فن التشبيه: مشهد الطعم والرائحة في المؤمن القارئ، ومـشهد الطعم من غير رائحة في المؤمن غير القارئ... وهنا يوحي التشكيل الفنـي بـأن قراءة القرآن بمنزلة الرائحة الزكية، وإن انبعثت من الطّوية السيئة للمنـافق، فهـي جمال لا ينكر.وقد أثار النص حاسة البصر في جمال المرئيات، وحاسة الـشم فـي رائحة الأترجة والريحانة، وحاسة الذوق في طعم الأترجة والتمرة والحنظلة، وجاء هذا الجمال بوساطة صيغة (مثل كمثل) ولهذا التطويل بُعده الفنـي فـي الجزيئـات فضلاً عن احتواء الشكل الفني تمام الاحتواء للفكرة" [328].

---

(327) العسقلاني، فتح الباري، ج9، ص57-58.

(328) ياسوف، أحمد، الصورة الفنية في الحديث النبـوي الـشريف، دار المكتبـي، دمـشق، 2006م، ط2، ص145.

وأود أن أشير هنا إلى أنه عرض لكثير من التشبيهات المتعددة الأطراف في مواطن كثيرة من شرحه، ولكنّي لن أستطرد في إيراد المزيد منها لأمرين:

أولهما: أن الهدف من هذا البحث ليس استقراء التشبيهات استقراء تاماً، ولذلك فإنني سأكتفي بالنظير على نظيره، على ألا أغفل مكاناً فيه إضافة جديدة تخدم البحث البلاغي.

ثانيهما: أنني سأذكر بعون الله فيما يأتي تشبيهات متنوعة في وجه الشبه، وأدوات التشبيه وغير ذلك.

وجه الشبه:

من المعلوم أن وجه الشبه يعرف بأنه: المعنى الذي يشترك فيه الطرفان[329]، وهو إما حسي أو عقلي، مفرد أو مركب أو متعدد.

هل يكون وجه الشبه في كل الأمور؟

يبدو رأي العسقلاني في هذه القضية قاطعاً، فقد ذكر في أكثر من موضع أن وجه الشبه يكون في بعض الأمور المشتركة بين الطرفين لا في جميعها:

يقول "والتشبيه لا يلتزم المشاركة بين المشبه والمشبه به في جميع الأوصاف بل يكفي حصوله في البعض"[330].

ويقول "والتشبيه لا يستلزم التسوية من كل وجه"[331].

وقد بنى على هذه المقولة البلاغية ترجيحه لبعض الآراء الشرعية على بعض، فقد اختار أن يكون تشبيه الطاعم الشاكر بالصائم الصابر في قول النبي –عليه الصلاة والسلام- "إن للطاعم الشاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر" في أصل الثواب، لا في الكمية ولا الكيفية، لأنه لا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أن يكونا مستويين في كل الأمور، يقول:

".. قال الكرماني: التشبيه هنا في أصل الثواب لا في الكمية ولا الكيفية، والتشبيه لا يلزم المماثلة من جميع الأوجه، وقال الطيبي: ربما توهم متوهم أن ثواب

---

(329) القزويني، الإيضاح، ج3، ص59.

(330) العسقلاني، فتح الباري، ج11، ص319.

(331) المرجع نفسه، ج2، ص35.

الشكر يقصر عن ثواب الصبر، فأزيل توهمه أو وجه الشبه اشتراكهما في حبس النفس، فالصابر يحبس نفسه على طاعة لمنعم والشاكر يحبس نفسه على محبته... وفيه رفع الاختلاف المشهور في الغني الشاكر والفقير الصابر وأنهما سواء، وكذا قيل: ومساق الحديث يقتضي تفضيل الفقير الصابر، لأن الأصل أن المشبه به أعلى درجة من المشبه، والتحقيق عند أهل الحذق أن لا يجاب في ذلك بجواب كلي، بل يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال"(332).

ويقول العسقلاني عند شرحه لقول النبي –صلى الله عليه وسلم- "لخلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك......يؤخذ من قوله "أطيب من ريح المسك" أن الخلوف أعظم من دم الشهادة، لأن دم الشهيد شبه ريحه بريح المسك، والخلوف وصف بأنه أطيب، ولا يلزم من ذلك أن يكون الصيام أفضل من الشهادة، بما لا يخفى، ولعلّ سبب ذلك النظر إلى أصل كل منهما، فإن أصل الخلوف طاهر، وأصل الدم بخلافه فكان ما أصله طاهراً أطيب ريحاً"(333).

وهذا الكلام عن تعليل تأويل الحديث السابق (بالنظر إلى أصله، فالخلوف طاهر والدم بخلاف) دقيق جداً، وهي لفتة حرصت على متابعتها عند الشراح السابقين، ووجدت أن العسقلاني قد تميز بها وانفرد.

تشبيه الشيء الواحد بشيئين مختلفين:

إذا علمنا أن وجه الشبه يأتي في أمر واحد، أو أكثر، وليس في كل الأمور، فإنه يمكن أن يشبه الشيء الواحد بشيئين أو أشياء، إذا اختلفت الصفة المشتركة بين الطرفين في كل تشبيه، وقد وجدت من هذا القبيل موازنة رائعة عقدها العسقلاني بين تشبيه الناس يوم القيامة مرة بالجراد المنتشر، وأخرى بالفراش المبثوث، وهما شيئان مختلفان، ورأى أن ذلك أمر مقبول، ما دام وجه الشبه مختلفاً، يقول:

"قوله كالفراش المبثوث كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضاً، كذلك الناس يجول بعضهم في بعض" هو كلام الفراء، قال في قوله كالفراش: يريد كغوغاء

---

(332) العسقلاني، فتح الباري، ج9، ص497.

(333) المرجع نفسه، ج4، ص94.

الجراد الخ، وقال أبو عبيدة: الفراش طير لا ذباب ولا بعوض، والمبثوث المتفـرق، وحمل الفراش على حقيقته أولى والعرب تشبه بالفراش كثيراً كقول الجرير:

إن الفرزدق مـا علمـت وقومـه مثل الفراش غشين نار المصطلى

وصفهم بالحرص والتهافت، وفي تشبيه الناس يوم البعث بالفراش مناسـبات كثيرة بليغة، كالطيش والانتشار والكثرة والضعف والذلة..."[334].

ويبدو من كلامه السابق أنه جعل تشبيه الناس وقت البعث بالجراد ،والفراش في وقت واحد، لأوجه شبه متعددة تربط ما بينها، والحقيقة أن القرطبي قد اسـتطاع بذكائه أن يوظّف التشبيهين السابقين، بطريقة تتناسب مع محاور، ودلائل الحـساب والعقاب، فقال:

"إن أول حالهم كالفراش لا وجه له، يتحير في كل وجه، ثم يكونون كالجراد لأن لها وجهاً تقصده"[335].

وجه الشبه المفرد والمتعدد:

إن الصفة المشتركة بين المشبه والمشبه به قد تكون في أمرٍ واحـد وعندئـذٍ يسمى وجه الشبه مفرداً، وقد تكون في أكثر من أمر، ويسمي عندئذٍ وجـه الـشبه المتعدد.

ولم يسم العسقلاني هذه الأوجه بأسمائها في شرحه، ولكنه كان يحال مكتفيـاً بالجمع ما بين الطرفين بصفة واحدة أو أكثر.

أولاً: المفرد:

ومن التشبيهات التي أشار إليها العسقلاني، والتي جاء فيهـا وجـه الـشبه مفرداً، قول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "تضيء وجوههم إضـاءة القمـر ليلـة البدر". يقول "قال القرطبي: المراد بالصورة أنهم في إشراق وجوههم علـى صـفة القمر ليلة تمامه"[336].

([334]) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص631.

([335]) القرطبي، محمد بن احمد، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، 1968م، ط1، ج1، ص7255.

([336]) العسقلاني، فتح الباري، ج11، ص353.

فوجه الشبه واحد بين أهل الجنة والقمر وهي الإشراق، وهو مفرد معنوي أو عقلي.

وأشار العسقلاني إلى تشبيهات جاء فيها وجه الشبه مفرداً حسياً منها قوله تعالى: "وتكون الجبال كالعهن".[337]

يقول: "قوله كالعهن كألوان العهن سقط هذا لأبي ذر، وهو قول الفراء قال: كالعهن لأن ألوانها مختلفة كالعهن وهو الصوف"[338].

وبناء على شرحه لهذا التشبيه، يكون وجه الشبه مفرداً حسياً ،وهو: اللون المختلف.

ومن أمثلته أيضا: "قوله أسلمت امرأة سوداء، وكان لها حفشٌ في المسجد، حفش بكسر المهملة، وسكون الفاء، بعدها معجمة، هو البيت الضيق الصغير، وقال أبو عبيدة: الحفش هو الدرج في الأصل، ثم سُمي به البيت الصغير لشبهه به في الضيق"[339]. وهو من قبيل المفرد العقلي.

ثانياً: المركب:

نادراً ما ذكر العسقلاني تشبيهات تحوي أوجه الشبه المركب' ومنها ما ذكره عند شرحه للصراط "... وبه كلاليب مثل شوك السعدان".

ومما قاله في هذا التشبيه "... قال الزين بن المنير: تشبيه الكلاليب بشوك السعدان خاص بسرعة اختطفاها، وكثرة الانتشاب"[340].

ثالثاً: المتعدد

ذكر العسقلاني كثيراً من أوجه الشبه المتعددة الحسية والعقلية، في أماكن مختلفة من شرحه:

ومن ذلك ما ذكره في شرحه لقوله تعالى: "يوم يكون الناس كالفراش المبثوث" [341] يقول: "... وفي تشبيه الناس يوم البعث كالفراش مناسبات كثيرة بليغة

---

(337) سورة المعارج، آية 9

(338) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص631.

(339) المرجع نفسه، ج7، ص129.

(340) المرجع نفسه، ج11، ص388.

كالطيش، والانتشار، والكثرة، والضعف ،والذلة، والمجيء بغير رجوع، والقصد إلى الداعي، والإسراع، وركوب بعضهم بعضاً، والتطاير إلى النار"[342].

ويبدو العسقلاني في حديثه السابق وسرده لأوجه الشبه متأثراً بآراء غيـره، وأود هنا أن أسجل كلام السابقين الذين تأثر بهم، وردد كلماتهم في ثنايا كلامه، وقد ذكر عشرة أوجه للتشبيه، جاء في كلام الزجاج ثلاثة منها هي: الانتشار، والمجيء بغير رجوع، والتطاير إلى النار. ولدى الفراء أربعة منها هي "الكثـرة والتتـابع أو الإسراع والضعف وركوب بعضهم بعضاً"[343] وقد أوجز هذه الآراء أيـضا الإمـام الرازي في تفسيره يقول: "واعلم أنه تعالى وصف ذلك اليوم بأمرين، الأول: كـون الناس فيه كالفراش المبثوث، قال الزجاج: الفراش هو الحيوان الذي يتهافت في النار وسمي فراشاً لتفرشه وانتشاره، ثم إنّه تعالى شبه الخلق وقت البعث ههنا بـالفراش المبثوث وفي آية أخرى بالجراد المنتشر، أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، فدلّ هذا على أنهم إذا بعثوا فزعوا، واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومـة، والمبثوث المفرق، يقال بثّه إذا فرقه... قال الفراء: كغوغاء الجراد والفراش يركب بعضه بعضاً، وبالجملة فا سبحانه وتعالى شبه الناس في وقـت البعـث بـالجراد المنتشر وبالفراش المبثوث لأنهم لما بعثوا يموج بعـضهم فـي بعـض كـالجراد والفراش... فإن قيل: الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار، فكيف شبه الـشيء الواحـد بالصغير والكبير معاً؟ قلنا: شبه الواحد بالصغير، والكبير، لكن في وصـفين، أمـا التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأخرى، وأما بالجراد، فـالكثرة والتتابع..."[344].

([341]) سورة القارعة ،آية 4

([342]) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص631.

([343]) الفراء ، معاني القرآن ، ج2، ص311

([344]) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، دار الفكـر، بيـروت، 1405هـ ـ، ج2، ص71-72.

ومن الوجه المتعدد ما ذكره في قول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول ا ، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك يجمع ا الناس فيقول: مَن كان يعبد شيئاً فليتبعه".

يقول: "قوله ترونه كذلك المراد تشبيه الرؤية برؤية القمر في الوضوح، وزوال الشك، ورفع المشقة، والاختلاف..." [345]، وهو من قبيل التعدد المعنوي أو العقلي.

ومن أمثلته: "قوله كأن رأسه زبيبة: قيل شبهه بذلك لصغر رأسه، وذلك معروف في الحبشة، وقيل لسواده، وقيل لقصر شعره وتفلفله" [346].

وقوله: " قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد.........

قال ابن حبيب: شبهته في لينه وغفلته بالفهد، لأنه يوصف بالحياء وقلة الشر، وكثرة النوم،... وقلب الوصف بعض الرواة كما وقع في رواية الزبير بن بكار فقال: إذا دخل أسد، وإذا خرج فهد، فإن كان محفوظاً فمعناه أنه إذا خرج إلى مجلسه، كان على غاية الرزانة، والوقار، وحسن السمت ،أو على الغاية من تحصيل الكسب، وإذا دخل منزله كان متفضلاً مواسياً ،لأن الأسد يوصف بأنه إذا افترس أكل من فريسته بعضاً، وترك الباقي لمن حوله من الوحوش ،ولم يهاوشهم عليها..." [347].

التشبيه والتمثيل:

اختلفت كلمة البلاغيين حول تطابق التشبيه والتمثيل، أو اختلافهما، وقد أدلى كثير منهم برأيه في هذا الموقف، وأرى لزاماً علي قبل أن أتطرق إلى موقف العسقلاني منهما، أن ألقي الضوء على رأي الشيخ عبدالقاهر الجرجاني، والزمخشري، وهما أبرز من تأثّر بهم العسقلاني في فكره البلاغي ليكون بذلك أكثر عوناً على معرفة موقفه من التشبيه والتمثيل بوضوح.

أولاً: موقف الجرجاني:

([345]) العسقلاني ، فتح الباري ، ج2، ص162.

([346]) المرجع نفسه، ج9، ص223.

([347]) المرجع نفسه، ج9، ص223.

فرق عبدالقاهر الجرجاني ما بين التشبيه والتمثيل، وجعل التشبيه أعم من التمثيل، فالقاعدة لديه أن كل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً، والفيصل في هذا وجه الشبه، فإذا كان جلياً واضحاً لا يحتاج إلى تأويل فهو تشبيه ويتحقق هذا بأمرين[348] :

1. أن يكون وجه الشبه حسياً سواء كان مفرداً أم مركباً.
2. أن يكون وجه الشبه فطرياً طبيعياً كالشجاعة والجبن.

وأما إن كان وجه الشبه يحتاج إلى جهد في تأوله وانتزاعه فهو تمثيل.

ثانياً: موقف الزمخشري وابن الاثير:

لم يفرق الزمخشري ويوافقه في هذا ابن الأثير بين التشبيه والتمثيل، بل هما- من خلال تصريحاتهما –لفظان مترادفان يقول ابن الأثير: "وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا باباً مفرداً، ولهذا باباً مفرداً، وهما شيء واحد، لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال: شبهت هذا الشيء كما يقال مثلته به وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه" [349].

موقف العسقلاني:

بعد أن علمنا رأي الجرجاني والزمخشري وغيرهما، نود أن نتعرف إلى رأي العسقلاني، وهل له رأي خاص به، أم أنه تأثر برأي أحد الشيخين.

والذي تبين لي بعد طول المتابعة، والتحليل المعمق للتشبيهات الواردة في فتح الباري أن التشبيه والتمثيل عنده بمعنى واحد.

وقد عثرت من كلامه على ما يؤكد هذا الأمر، فقد استعمل كلمة مثل: وشبه، وتشبيه، وتمثيل في التشبيه المفرد الصريح، وهذا يدلّ على أنه لا يفرق بين التشبيه والتمثيل، ومن ناحية أخرى فإنه يدل على أنه لا يفرق بين المفرد والمركب.

فقد قال عند شرحه للحديث النبوي "الذي يرجع في صدقته كالكلاب يرجع في قيئه"، يقول: "أي لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة تشابهنا في

---

(348) الجرجاني، عبدالقاهر، أسرار البلاغة، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، 1991م، ط1، ص68-71.

(349) ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص232.وانظر الزمخشري ، الكشاف ، ج3،ص241.

أخس الحيوانات في أخس أحوالها، وقوله كالكلاب يرجع في قيئه هذا التمثيل وقع في طريق سعيد بن المسيب.."[350].

فنجده قد عبر عن التشبيه المفرد وهو العائد في صدقته بالكلب مرة بـ(تشابهنا) ومرة أخرى بـ(هذا التمثيل).

وأكثر من ذلك وجدته يطلق على التشبيه الواحد في بعض المواضع تمثيلاً ويطلق عليه في الموضع ذاته أو في موضع آخر تشبيهاً وهو تشبيه مفرد أيضاً:

فقد تكلم عن التشبيه في قول النبي –عليه الصلاة والسلام-: "ناس من أمتي عُرضوا علي غزاة في سبيل ا يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة" مرتين، مرة بقوله تشبيه محسوس ومرة بقوله تمثيل.

يقول: "قال عياض يحتمل أن يكون خبراً عن حالهم في الغزو من سعة أحوالهم وقوام أمرهم وكثرة عددهم، وجودة عددهم، فكأنهم الملوك على الأسرة، قلت: وفي هذا الاحتمال بعد، والأول أظهر لكن الإتيان بالتمثيل في معظم طرقه يدل على أنه رأى ما يؤول إليه أمرهم، لا أنهم نالوا ذلك في تلك الحالة أو موقع التشبيه أنهم فيما هم فيه من النعيم الذي أثيبوا به على جهادهم مثل ملوك الدنيا على أسرتهم والتشبيه بالمحسوسات أبلغ في نفس السامع[351].

فكون العسقلاني يجعل التشبيه الواحد مرة تمثيلاً، ومرة أخرى تشبيهاً، فهذا يجعلنا نجزم بأن التشبيه والتمثيل عنده لفظان متطابقان ويكون بهذا متأثراً بمنهجية معلمه الزمخشري الذي لا يفرق ما بين التشبيه والتمثيل، ومخالفاً لمنهجية الجرجاني.

2.1.1.3 أدوات التشبيه:

تتنوع أدوات التشبيه، فتأتي من الحروف، ومن الأفعال، ومن الأسماء، وقد أشار العسقلاني إلى إفادة هذه الأنواع جميعها معنى التشبيه، وسأتناول بعون ا الكلام عن هذه الأنواع الثلاث:

---

(350) العسقلاني، فتح الباري، ج5، ص199.

(351) المرجع نفسه، ج11، ص62.

أولاً: الحروف: ومن بينها:

أ. الكـاف: أشار العسقلاني في مواطن كثيرة من شرحه إلى أن الكاف مـن أدوات التشبيه، وقد تمثّل تناوله لها في صورتين:

الأولى: أن يصرح بأنها حرف تشبيه، أو تفيد التشبيه أوما شاكل ذلك، فقـد قال عند شرح قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتـب علـى الذين من قبلكم لعلكم تتقون".(352)

"قوله كما اختلف في التشبيه الذي دلت عليه الكاف، هل هو علـى الحقيقـة فيكون صيام رمضان قد كتب على الذين من قبلنا؟ أم المراد مطلـق الـصيام دون وقته وقدره؟"(353).

وقال في شرح قوله تعالى: "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمـة إن أخذه أليم شديد"…. الكاف في ذلك لتشبيه الأخذ المستقبلي بالأخذ الماضـي، وأتـى باللفظ الماضي موضع المضارعة على قراءة طلحة…"(354).

فنجده في المواطن السابقة يعبر عن الكاف بأنّه حرف يفيد التشبيه أو يقـول هذا الكاف للتشبيه.

والثانية: ألاّ يذكر أن الكاف تفيد التشبيه أو للتشبيه أو نحو ذلك، ولكنه يشرح التشبيه الذي جاءت فيه الكاف، ويشير إلى بعض أركانه أو بلفظ التشبيه نفسه، فقـد ذكر في قول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتعـاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو……. قوله كمثل الجسد؛ أي بالنسبة إلـى جميع أعضائه، ووجه الشبه في التوافق في التعب والراحة شبه النبـي –صـلى ا عليه وسلم- الإيمان بالجسد، وأهله بالأعضاء؛ لأن الإيمان أصل وفروعه التكاليف، فإذا أخل المرء بشيء من التكاليف شأن ذلك الإخلال الأصل، وكذلك الجسد أصـل الشجرة، وأعضاؤه كالأعضاء، فإذا اشتكى عضو من الأعضاء اشـتكت الأعـضاء

---

(352) سورة البقرة ، آية 183

(353) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص151.

(354) المرجع نفسه، ج8، ص302.

كلها، كالشجرة إذا ضرب غصن من الأغصان اهتزت الأغـصان كلهـا بـالتحرك والاضطراب"[355].

وهو يردد كلمات التشبيه، ووجه الشبه، والمشبه، ولكنه لم يصرح بأن الكاف للتشبيه أو ما شابه ذلك.

وقال عند شرحه لقول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "إنمـا مثـل صـاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عـاهد عليهـا أمـسكـها وإن أطلقـها ذهبـت.......

قال بعد توضيحه لمصطلحات الحديث "شبه درس القرآن واستمرار تلاوتـه بربط البعير الذي يخشى منه الشراد، فما زال التعاهد موجوداً، فالحفظ موجود، كما أن البعير ما دام مشدوداً بالعقال فهو محفوظ، وخص الإبل بالذكر لأنها أشد الحيوان الأنسي نفوراً، وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبة"[356].

ولعلّ العسقلاني كان يترك النص على أن الكاف للتشبيه فـي الأمثلـة الـسابقة اعتماداً على المواضع التي نص عليها أو اكتفاء ببيان التشبيه وإلقاء الضوء عليه أو على بعض أركانه، وكون الكاف أداة أظهر من أن تخفى على من له أدنـى صـلة بالبيان العربي.

أ. كأن:

وهي أداة من أدوات التشبيه، تفيد التشبيه سواء أكانت مشددة النون أم مخففة، ومن أمثلتها قول العسقلاني في الحديث النبوي: "... ورفع الصغير ونفسه تتقعقـع كأنها شن....قوله: ونفسه تتقعقع، قال: حسبت أنه قال كأنها شن... والقعقعة حكايـة صوت الشيء اليابس إذا حرك، والشن بفتح المعجمة وتشديد النون القربـة الخلقـة اليابسة، وعلى الرواية الثانية شبه البدن بالجلد اليابس الخلق، وحركة الروح فيه بما يرح في الجلد من حصاة ونحوها، وأما الرواية الأولى فكأنه شبه النفس بنفس الجلد، وهو أبلغ في الإشارة إلى شدة الضعف وذلك اظهر في التشبيه"[357].

([355]) العسقلاني، فتح الباري، ج10، ص372-373.

([356]) المرجع نفسه، ج9، ص68.

([357]) المرجع نفسه ، ج3، ص137.

ويبدو أنه من خلال قوله "أبلغ في الإشارة إلى شدة الضعف، وذلك اظهر في التشبيه" يقف إلى جانب اللغويين الذين يرون أن (كأن) مركبة من الكاف وإن، لـذا فهي أبلغ في إفادة التشبيه من الكاف.

وتناول التشبيه في قوله تعالى: "كأنهم أعجاز نخل خاوية".[358]

" قوله خاوية أي أصولها وهي على رأس من أنث النخيل، وشبههم بأعجـاز النخل، إشارة إلى عظم أجسامهم، قال وهب بن منبه: كان رأس أحدهم مثل القبـة، وقيل: كان طوله اثني عشر ذراعاً، وقيل كان أكثر من عشرة، وروى ابن الكلبـي، قال: كان طول أقصرهم ستين ذراعاً، وأطولهم مائة، والكلبي بألف وفي قوله "فهـل ترى لهم من باقية"، أي من بقية، وفي التفسير أن الريح كانت تحمل الرجل فترفعـه في الهواء ثم تلقيه فتشدخ رأسه فيبقى جثة بلا رأس، فذلك قوله "كأنهم أعجاز نخـل خاوية" وأعجاز النخل هي التي لا رؤوس لها"[359].

وهو يحلل التشبيه السابق من خلال آراء المفسرين، دون أن يشير إلـى أداة التشبيه (كأن) أو يصرح بها.

ثانياً: الأفعال:

أشار العسقلاني في أثناء شرحه لبعض التشبيهات، إلى أداوت التشبيه مـن الأفعال:

أ. شّبه:

تأتي أداة التشبيه (شُبه) في مقدمة الأفعال التي أشار إليها العسقلاني، فقد قال عند شرحه لقول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "عن عائشة أنه ذكر عندها ما يقطع الصلاة، الكلب والحمار، والمرأة، فقالت: شبهتمونا بالحُمر والكلاب، وا لقد رأيت النبي –صلى ا عليه وسلم- يصلي وإني على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة، فتبدو لي الحاجة، فأكره أن أجلس فأوذي النبي –صلى ا عليه وسلم- فأنسل مـن عند رجليه".

([358]) سورة الحاقة ، آية 7

([359]) العسقلاني، فتح الباري، ج6، ص310.

"قال ابن مالك في هذا الحديث جواز تعدي المشبه له بالباء، وأنكـره بعـض النحويين حين بالغ فخطأ سيبويه في قوله: شبه كذا بكذا، وزعم انه لا يوجد في كلام من يوثق بعربيته، وقد وجد في كلام من هو فوق ذلك، وهي عائـشة –رضـي ا عنها-، قال: والحق أنه جائز وإن كان سقوطها أشهر في كلام المتقـدمين وثبوتهـا لازم في عرف العلماء المتأخرين"(360).

ب. **يتمثل:**

وجاءت الإشارة إليه في قول النبي –صلى ا عليه وسلم- عندما سأله سائل فقال: "يا رسول ا كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول ا –صلى ا عليـه وسـلم-: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه مـا قال، و أحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول......."(361)

وأيضا في قوله:

"قوله: ولا يتمثل الشيطان بي، فمعناه لا يتشبه بي، وأما قوله في صـورتي فمعناه لا يصير كائناً في مثل صورتي... قال المازردي: اختلف المحققون في تأويل هذا الحديث، فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أن المراد بقوله: "من رآني فـي المنام فقد رآني". أي رؤياه صحيحة لا تكون أضغاثاً ولا من تـشبيهات الـشيطان، قال: ويعضده قوله في بعض طرقه: "فقد رأى الحق، وقال وفي قوله فإن الـشيطان لا يتمثل بي إشارة إلى أن رؤياه لا تكون أضغاثاً... ثم حكى القاضي عياض عـن بعضهم قال: خص ا نبيه بعموم رؤياه كلها ومنع الشيطان أن يتصور في صورته لئلا يتذرع بالكذب على لسانه في النوم، ولما فرق ا العادة للأنبياء للدلالـة علـى صحة حالهم في اليقظة، واستحال تصور الشيطان في صورته في اليقظة، ولا على صفة مضادة لحاله إذ لو كان ذلك لدخل اللبس بين الحق والباطل، ولم يوثق بما جاء من جهة النبوة، حمى ا حماها لذلك من الشيطان وتصوره والقائه وكيده..."(362).

---

(360) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص523.

(361) المرجع نفسه، ج1،ص17

(362) المرجع نفسه ، ج12، ص330-331.

ج. جعل وإفادتها للتشبيه:

ذكر العسقلاني في بعض المواطن من شرحه ما يشعر بأن الفعل (جعل) يفيد التشبيه، فقد قال في قول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً".

"قوله وجعلت لي الأرض مسجداً، أي موضع سجود، ولا يختص السجود منها بموضع دون غيره، ويمكن أن يكون مجازاً عن المكان المبني للصلاة وهو من مجاز التشبيه لأنه لما جازت الصلاة في جميعها كان كالمسجد في ذلك"[363].

والعسقلاني على الرغم من أنه اعتبر ما بعد الفعل (جعل) مفيداً للتشبيه، إلاّ أنّه لم يصرح بأن هذا الفعل أداة تشبيه.

وحاله في هذا حال الشراح والمفسرين من قبله، فهذا الزمخشري مثلا يفسر قوله تعالى: "وهو الذي جعل الليل لباساً" بقوله: "شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر"[364].

وهو لم يصرح أيضاً بأن الفعل جعل من أدوات التشبيه.

ولعلّ محمد طالب عمرو الذي عنون رسالته بـ(التشبيه في الحديث النبوي) كان متأثراً بصنيع هؤلاء العلماء، فحصر أدوات التشبيه في الحديث النبوي من الأفعال بخمسة، أفعال فقط هي: "يتمثل أشبه، تشبه، مثل، تعدل"[365]. وقائمته تخلو كما يبدو من الفعل جعل.

وعلى النقيض من هذا نجد عبدالقادر حسين، وعبدالفتاح لاشين[366]، يدرجان الفعل (جعل) ضمن أدوات التشبيه، يقول عبدالقادر حسين: "... والأفعال مثل

---

(363) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص390.

(364) الزمخشري، الكشاف، ج3، ص99.

(365) عمرو، محمد طالب، التشبيه في الحديث النبوي، رسالة ماجستير، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1997م، ص81.

(366) لاشين، عبدالفتاح، البيان في ضوء أساليب القرآن، ص37-38.

يحسب، ويظن، ويخال، ويعلم، ويشبه ويماثل، ويجعل" ويمثل للفعل جعـل بقولـه تعالى: "ألم نجعل الأرض مهاداً"(367).

وهذا التناقض الحاصل دفعني للبحث في مدى إفادة(جعل) للتشبيه أو عـدم إفادتها، وتبين لي أن هذا الفعل ليس من أدوات التشبيه، وأن ما بعده تشبيه محذوف الأداة، وأنه يلحق بهذا بأفعال الشك واليقين حسب وظن، وخال التي تقتصر مهمتها على الإشارة إلى مدى قرب التشبيه أو بعده، يقول القزويني: "وقد يذكر فعل ينبـئ عنه كافي علمت زيداً أسداً إن قرب، وحسبت إن بعد".(368)

وما دفعني للجزم بهذا، إلاّ أنني عثرت على نص لابن الأثير في كتابه المثل السائر يدعم ما توصلت إليه، يقول: "... كقوله تعالى في المضمر لـلأداة (وجعلنـا الليل لباساً) فشبه الليل باللباس، وذلك أنه يتسر الناس بعضهم عن بعض مـن أراد هرباً من عدو، أو ثباتاً لعدو، أو إخفاء ما لا يحب الإطلاع عليه من أمره، وهذا من التشبيهات التي لم يأتِ بها إلا القرآن الكريم".(369)

فالتشبيه بعد جعل وفق رأي ابن الأثير تشبيه بليـغ محـذوف الأداة، ولعـلّ العسقلاني قد أشار إلى هذا عندما قدر الأداة المحذوفة (الكاف) بقوله (كالمسجد فـي ذلك).

ثالثاً: الأسماء: ومن أبرزها:

أ. مثل: وقد أشار إليها العسقلاني عند قول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "أحيانـاً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي".

يقول: "قوله مثل صلصلة الجرس... المشبه الوحي وهو محمود، والمشبه به صوت الجرس وهو مذموم لصحة النهي عنه والتنفير من مرافقة ما هو معلق فيـه، والإعلام بأنه لا تصحبهم الملائكة، فكيف يشبه ما فعله الملـك بـأمر تنفـر منـه الملائكة؟ والجواب أنه لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به فـي الـصفات

---

(367) حسين، عبدالقادر، القرآن إعجازه وبلاغته، ص173.

(368) القزويني ، الإيضاح ، السابق ، ص154

(369) ابن الاثير ، المثل السائر ، السابق ، ج1، ص 232، وانظر هنداوي ،أحمد : المباحث البيابية في تفسير الفخر الرازي ،مكتبة وهيبة ،القاهرة ، 1999، ط1 ، ص137

كلها، بل ولا في أخص وصف له، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، فالمقصود هنـا بيان الجنس، فذكر ما ألف السامعون سماعه تقريباً لأفهامهم، والحاصل أن الصوت له جهتان: جهة قوة، وجهة طنين، فمن حيث القوة وقع التشبيه بـه، ومـن حيـث الطرب وقع التنفير عنه وعلل بكونه مزمار الشيطان، ويحتمل أن يكون النهي عنـه وقع بعد السؤال المذكور، وفيه نظر، قيل: والصلصلة المـذكورة صـوت الملـك بالوحي، قال الخطابي: يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد، وقيل: بل هو صوت حفيف أجنحة الملك، والحكمة في تقدمه أن يقـرع سمعه الوحي، فلا يبقى فيه مكان لغيره، ولما كان الجرس لا تحصل صلـصلته إلا متداركه وقع التشبيه به دون غيره من الآلات"(370).

ويفهم من كلام العسقلاني السابق أن مثل تفيد التشبيه من بعض الوجـوه لا التماثل من جميع الوجوه، وهذا ما يتناسب مع موقفه من التشبيه والتمثيل.

ب. عَدل:

ومن هذه الأسماء كلمة (عدل) فقد قال أن العدل المثل في قول النبي –صلى الله عليه وسلم-: "من تصدق بعدل تمرة من كسبٍ طيب -ولا يقبل الله إلاّ الطيب- فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه....يقول: "قوله بعدل تمرة أي بقيمتها، وقال الفراء بعدل بالفتح المثل من غير جنسه، وبالكسر من جنسه، وقيل بالفتح مثله في القيمة، وبالكسر في النظر، وأنكر البصريون هذه التفرقة، وقال الكسائي: هما بمعنى واحد كما أن لفظ المثل لا يختلف"(371).

التشبيه باعتبار الأداة:

بعد أن تعرضنا لأدوات التشبيه نود الآن أن نتعرف علـى أنـواع التـشبيه باعتبار الأداة، خاصة وأن العسقلاني قد أثارها في شرحه وهي في نوعين:

أ. التشبيه المرسل:

وهو التشبيه الذي ذكرت فيه الأداة، ومن أمثلته:

---

(370) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص19؛ وانظـر أيـضاً: ج10، ص57؛ ج1، ص134، 135.

(371) المرجع نفسه، ج3، ص241-242.

شرح العسقلاني لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم" (372)

"وقوله كما اختلف في التشبيه الذي دلّت عليه الكاف، هل هو على الحقيقة... أو المراد مطلق القيام دون وقته وقدره"(373).

ومن هذا الوجه ما ذكره عند قوله تعالى: "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى" (374) فقد قال: "الكاف في ذلك لتشبيه الأخذ المستقبلي بالأخذ الماضي"(375).

ب. التشبيه المؤكد: وهو ما حذفت منه الأداة، وهو أبلغ من المرسل، ومن أمثلته:

قول العسقلاني في القول النبوي: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة" يقول: "قوله روضة من رياض الجنة أي كروضة من رياض الجنة، فيها نزول الرحمة، وحصول السعادة بما يحصل من ملازمة خلق الذكر لا سيما في عهده –صلى ا عليه وسلم- فيكون تشبيهاً بغير أداة"(376).

ومنه أيضاً: "قوله إن هذا المال خضرة حلوة... رواية الدارقطني (ولكن هذا المال الخ)، ومعناه أن صورة الدنيا حسنة مونقة، والعرب تسمي كل شيء مشرق ناضر أخضر، وقال ابن الأنباري: قوله (المال خضره حلوه) ليس هو صفة المال وإنما هو للتشبيه، كأنه قال: المال كالبقلة الخضراء الحلوة..."(377).

مصادر التشبيه في فتح الباري:

بعد إلقاء نظرة فاحصة حول ضروب التشبيه في شرح العسقلاني، لا بد من النظر في مصادر هذا التشبيه ومجالاته ،وبعد القراءة المتأنية تبين للدارس أنها تأتي في أربعة مصادر هي:

---

(372) سورة البقرة ، آية 183

(373) العسقلاني، فتح الباري ، ج8، ص151.

(374) سورة هود ، آية 102

(375) العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص302؛ وانظر: ج11، ص382.

(376) المرجع نفسه ، ج4، ص87.

(377) المرجع نفسه، ج11، ص208.

أولا: الإنسان:

تناولت كثير من الأحاديث النبوية، مراحل تكوين الإنسان ،وسلوكه وأخلاقه ،وعلاقاته بالآخرين،ومن مظاهر تكوين الإنسان،ما جاء في حق النبي –صلى ا عليه وسلم – " .... ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبي ثم حشي"(378) حيث شبه مرحلة إعادة تكوين قلب النبي –صلى ا عليه وسلم – بشيء يغسل

وأشار إلى بعض الحواس الإنسانية منها قول النبي :" من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين فخذيه اضمن له الجنة " (379) فقد جعل اللسان، والفرج مواثيق، إن تم المحافظة عليها استحق المسلم المكافأة على ذلك " الجنة ".

أما مظاهر السلوك الإنساني، من فرح و،حزن، وحسد ،وغيرها فتجلت في قول النبي : " أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه ،وشرابه فوضع رأسه، فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء ا ، قال: ارجع إلى مكاني فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده "(380)فشبه فرحة ا بعودة العبد إليه ،بفرحة إنسان فقد راحلته في الصحراء، فتعرضت حياته للخطر من جرآء ضياع الراحلة، فرفع رأسه فإذا راحلته عند رأسه.

أما المرأة في الأحاديث النبوية فهي رقيقة ضعيفة، يقـول النبـي :" المـرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها" (381) فهو يشبه المرأة بالضلع الأعوج دليل على ضـعفها ورقتها. ومن مظاهر الأخلاق التي أشارت إليها الأحاديث النبوية، الكرم، والشجاعة ،يقول الحديث :" كان النبي في رمضان .. أجود بالخير من الـريح المرسـلة" (382) حيث شبه الكرم النبوي بالريح المرسله، بل جعله أبلغ منها حين قال "أجـود" أمـا

---

(378) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص102.

(379) المرجع نفسه، ج11، ص262.

(380) المرجع نفسه، ج11، ص86.

(381) المرجع نفسه، ج6، ص298.

(382) المرجع نفسه، ج9، ص11.

مظاهر العبادة فتتجلى في قول النبي :" صم يوما وافطر يوما، فذلك صـيام داود "[383]شبه صيام الصحابي إذا صام يوما وأفطر يوما بصيام داود عليه السلام .

ثانيا: الحيوان

ظهر في الأحاديث النبوية مدى اهتمام النبي – صلى ا عليه وسلم – فـي تشبيهاته بالأليف من الحيوان، وخص بهذا الاهتمام، الإبـل، والخيـل ،والكـلاب، والأغنام . يقول النبي : " إنما مثل صاحب القرآن، كمثل صاحب الإبل المعلقـة إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت" [384]شبه قارئ القرآن الذي يحافظ على قراءة القرآن ،وتلاوته، بصاحب الإبل الحريص على بعيره فهو يشده بالوثاق.

ومنه أيضا: " اعتدلوا في السجود ،ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبـساط الكلـب "[385]،وهنا شبه افتراش المصلي، والتهاون في أداء صلاته، بافتراش الكلب تـشويها للمشبه.ومنه أيضا : قول النبي : " من آتاه ا مالا فلم يؤد زكاته مثّل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة "[386]شبه ذلـك الثعبـان بـالطوق الـذي يلفه.وجاءت الإشارة إلى الحمار،في قوله النبي – صلى ا عليه وسلم - : " عـن عائشة أنه ذكر عندها ما يقطع الصلاة، الكلب، والحمار، والمرأة، فقالت:شـبهتمونا بالحمر والكلاب، وا لقد رأيت النبي –صلى ا عليه وسلم –يصلي وإنـي علـى السرير بينه وبين القبلة مضطجعة ،فتبدو لي الحاجة، فأكره أن أجلس فأوذي النبي – صلى ا عليه وسلم – فأنسل من عند رجليه "[387]

ومن الطير ذكر الصقر، والغراب، والعصفور، يقول : " ما نقـص علمـي وعلمك من علم ا إلا كنقرة هذا العصفور من البحر" [388].شبه الخضر ما معه، ومع

([383]) العسقلاني، فتح الباري، ج4، ص191.

([384]) المرجع نفسه، ج9، ص68.

([385]) المرجع نفسه، ج2، ص262.

([386]) المرجع نفسه، ج3، ص232.

([387]) المرجع نفسه، ج1، ص523.

([388]) المرجع نفسه، ج8، ص351.

سيدنا موسى من العلم –على عظمه- مقارنة بعلم الله المطلق ،بنقرة العصفور من البحر،وهي نقرة لا حجم لها إطلاقا.

ثالثا: الطبيعة: واحتلت الطبيعة المرتبة الثالثة في التشبيهات النبوية ،وأبرز مظاهرها التي اهتم بها السماء ،والمطر، والكواكب، يقول:" تضيء وجوههم على صفة القمر ليلة البدر "[389] شبه إشراق وجوه أهل الجنة ،بإشراق القمر ليلة البدر .

أما الشجر فقد رسمت له الأحاديث النبوية عدة صور ،وأهم ما نلاحظه في هذه التشبيهات ،موازنته المسلم في علوه وثباته بالنخل، يقول : " أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم ،تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولا تحت ورقها، فوقع في نفسي النخلة...... قال النبي –صلى الله عليه وسلم – النخلة" [390] وذكر الجبال ليوازن بينها وبين أحوال الناس يقول :" من اتبع جنازة مسلم إيمانا واحتسابا .... يرجع من الآجر بقيراطين كل قيراط مثل أحد"[391] يوضح هذا التشبيه مقدار الثواب الذي يناله المسلم من جرآء مشيه خلف الجنازة ،والصلاة عليها، حين يرجع بقيراطين ،ولكن المتلقي لم يدرك مقدار القيراطين من الجواب، فانتزع لهم النبي من الطبيعة المحيطة بهم "جبل أحد" ليرسم لهم حجم الأجر المترتب على ذلك .

وذكر تشبيهات لأنواع أخرى من الشجر كانت لها مكانتها في عهد النبي وأصحابه، كالريحان،والحنظل، والتمر، وغيرها . يقول : " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجه طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة، طعمها مر ولا ريح لها"[392]

---

(389) العسقلاني، فتح الباري، ج11، ص353.

(390) المرجع نفسه، ج10، ص453.

(391) المرجع نفسه، ج1، ص100.

(392) المرجع نفسه، ج9، ص57ـ58.

ومن الطبيعة الأرض وفيها يقول النبي : " جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا"[393] ويكمن موطن التشبيه في أنه لما جازت الصلاة في الأرض جميعها،كانت كالمسجد في ذلك .

رابعا : الثقافة: وهي نمط الحياة ،والمعرفية، والفكرية، التي يعتمد عليها سلوك الفرد الاجتماعي، ومن ذلك استعادته أخبار السلف ،كعاد وثمود،يقول:" ... فأقبل رجل غائر العينين ... فقال : اتق ا يا محمد، فقال : من يطع ا إذا عصيت؟ أيأمنني أهل الأرض ولا تأمنوني ؟ فسأله رجل قتله .فمنعه، فلما ولى قال: إن من ضئضىء هذا –أو في عقب هذا- قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد " [394]شبه قتله لهؤلاء الفساق ،بقتل عاد في الإبادة الكلية.

ومن ذلك أيضا تصويره الطقوس الدينية التي يمارسوها أصحاب الديانات الأخرى،واتخاذهم قبور الأنبياء مساجد يتعبدون بها، قوله :" لعنة ا على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " [395]

ومما ينبئ عن ثقافة النبي – صلى ا عليه وسلم – وتفهمه لاحوال المخاطبين، استخدامه للغة الاشارية في مخاطبته لهم، يقول :" بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه، الوسطى والتي تلي الإبهام "[396] شبه بعثه وقرب قيام الساعة بإشارته بأصبعيه، وهما السبابة، والوسطى وهما متلاصقان.

ومن التشبيهات ما يكشف معارف النبي الطبية، يقول :" الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين " [397] شبه الكمأة بالمن، وهو الطل الذي يسقط على الشجر

([393]) العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص390.

([394]) المرجع نفسه، ج6، ص310..

([395]) المرجع نفسه، ج1، ص473.

([396]) المرجع نفسه، ص349.

([397]) المرجع نفسه، ص138.

فيجمع ويؤكل حلوا، لجامع ما بينهما من وجود كل منهما بغير تكلـف ولا سـقي. وأبرز فائدتها في شفاء العين.

3.1.1.3 أغراض التشبيه:

لما كان للحديث النبوي مكانته في علم البلاغة، فإن للتشبيه فيـه خـصائص وأغراض يتفرد بها، وأشار العسقلاني في شرحه إلى بعض هذه الأغـراض، وقـد لاحظت أنه أشار إلى مجموعة من الأغراض عائدة إلى المشبه.

أولها: بيان مقدار صفة المشبه من الزيادة أو النقصان أو القوة أو الضعف.

يقول العسقلاني في قول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "ما أجلكم في أجـل من كان قبلكم إلاّ من صلاة العصر إلى مغرب الشمس .....وله محملان أحدهما أن المراد بالتشبيه التقريب، ولا يراد حقيقة المقدار، والثاني أن يحمل على ظاهره فيقدم حديث ابن عمر لصحته، ويكون فيه دلالة على أن مدة هذه الأمة قدر خمس النهـار تقريباً"(398).

فالمخاطب يعلم أن أعمار أمة محمد –صلى ا عليه وسلم- قصيرة مقارنـة بالأمم السابقة، ولكنه لا يعلم مقدار هذا العمر، فوضح التشبيه أن أعمـارهم تعـدل خمس النهار أو ما بين الصلاة العصر إلى المغرب.

ثانيها: تقرير صفة المشبه في ذهن السامع:

ومنه قول العسقلاني في الحديث النبوي، جاء رجل إلى النبـي –صـلى ا عليه وسلم- فقال: يا رسول ا وُلد لي غلام أسود، فقال: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألونها؟ قال: حُمر، قال: هل فيها من أورق؟ قال: نعم، قال: فأنّى ذلك؟ قال: لعله نزعه عرق، قال: فلعلّ ابنك هذا نزعة".

"المراد بالعرق الأصل من النسب شبهه بعرق الشجرة، ومنه فـلان عريـق الأصل، أي أن أصله متناسب، وكذا معروف في الكرم أو اللـؤم، وأصـل النـزع الجذب، وقد يطلق على الميل، ومنه ما وقع في قصة عبدا بن سلاّم حين سُئل عن

---

(398) العسقلاني، فتح الباري، 299.

شبه الولد بأبيه أو بأمه: نزع إلى أبيه أو إلى أمه، وفي الحديث ضرب المثل، وتشبيه المجهول بالمعلوم تقريباً لفهم السائل"[399].

ومنها أيضاً قول العسقلاني في قول النبي –صلى الله عليه وسلم-: "مثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها....... في الحديث، فضيلة حاملي القرآن، وضرب المثل لتقريب الفهم"[400].

والأحاديث السابقة –كما نرى- تنزع إلى تصوير الأمور المعنوية في صور حسية مشاهدة حتى تستقر في ذهن المخاطب وتكن أدعى لفهمه.

ثالثها: بيان حال المشبه:

وقد جاءت الإشارة إلى هذا الغرض عند شرحه أو تفسيره لقوله تعالى:

"يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كالذي ينفق ماله رئاء الناس..."[401]

"... قال الزين بن المنير: وجه الاستدلال من الآية أن الله تعال شبه مقارنة المن والأذى للصدقة أو اتباعها بإنفاق الكافر المرائي الذي لا يجد بين يديه شيئاً منه، ومقارنة الرياء من المسلم لصدقته أقبح من مقارنة الإيذاء، وأولى أن يشبه بإنفاق الكافر المرائي في إبطال إنفاقه، وقال ابن رشيد: اقتصر البخاري في هذه الترجمة على الآية، ومراده أن المشبه بالشيء يكون أخفى من المشبه به، لأن الخفي ربما شبه بالظاهر ليخرج من حيز الخفاء إلى الظهور، ولما كان الإنفاق رياء من غير المؤمن ظاهراً في إبطال الصدقة شبه به الإبطال بالمن والأذى، أي حالة هؤلاء في الإبطال كحالة هؤلاء، هذا من حيث الجملة، لا يبعد أن يراعي حال التفصيل أيضاً؛ لأن حال المان شبيه بحال المرائي، لأنه لما من ظهر أنه لم يقصد وجه الله، وحال المؤذي يشبه بحال الفاقد للإيمان من المنافقين، لأن من يعلم أن للمؤذي ناصراً ينصره لم يؤذه، فعلم بهذا أن حالة المرائي أشد من حالة المان والمؤذي"[402].

([399]) العسقلاني، فتح الباري، ج9، ص279.

([400]) المرجع نفسه ، ج10، ص57.

([401]) سورة البقرة ، آية 264

([402]) العسقلاني ،فتح الباري، ج3، ص240.

رابعا: تقبيح المشبه وتشويهه:

وقد يقع التشبيه أحياناً لبيان قبح أحد الطرفين في ذهن السامع لتنفيره منه، وأشار العسقلاني إلى هذا من خلال قول النبي –صلى ا عليه وسلم-: "العائد في صدقته كالعائد في قيئه ....قوله كالعائد في قيئه" استدلّ به على تحريم ذلك؛ لأن القيء حرام، قال القرطبي: وهذا هو الظاهر من سياق الحديث، ويحتمل أن يكون التشبيه للتنفير خاصة لكون القيء مما يستقذر منها، وهو قول الأكثر"[403].

وغرض التشبيه أو التنفير في التشبيه السابق، لا يقصد لذاته وإنما يخفى وراءه رسالة الاعتبار والتحذير.

خامسها: المبالغة والتأكيد:

نجد هذا في شرح العسقلاني للحديث النبوي "استوصوا بالنساء خيراً، فإنّهن خلقن من ضلع، وإن اعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج".

"قوله وإن اعوج شيءٍ في الضلع أعلاه ذكر ذلك تأكيداً لمعنى الكسر؛ لأن الإقامة أمرها أظهر في الجهة العليا، أو إشارة إلى أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع مبالغة في إثبات هذه الصفة لهن"[404].

وهكذا يؤدي التشبيه في الحديث النبوي أدواراً متعددة، ووظائف كثيرة، وبهذه الأدوات التشبيهية تتضح الخصائص الأسلوبية للحديث النبوي التي يتكامل الاهتمام بها ما بين التركيب والدلالة.

2.3 المجاز:

يولد النص الأدبي غير مرتبط بمرجعية الواقع باعتباره محاكاة لها، ومن هنا يأتي مفهوم المجاز، العامل الأكبر المشكل لذلك النص يقول الجرجاني: المجاز: " من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه، وإذا عدل باللغة عما يوجبه أصل اللغه"[405]

---

(403) العسقلاني ،فتح الباري، ص305.

(404) المرجع نفسه، ص216.

(405) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص356.

يقسم المجاز إلى قسمين:

1. مجاز لغوي وهو نوعان:

أ. الأول ويقوم على المشابهة ويسمى " استعارة".

ب. الثاني لا يقوم على المشابهة، وإنما يكون لعلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه، ويسمى " المجاز المرسل".

2. مجاز عقلي: وهو الواقع في الإسناد.

وقد يكون من الأفضل قبل الكلام عن هذا المجاز بشطريه، أن أورد بعض القضايا التي لها تعلق بالمجاز، وجاء ذكرها في كلام العسقلاني:

أولاها: الحقيقة عند إمكانها مقدمة على المجاز:

تعرف الحقيقة بأنها: " الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له، من غير تأويل في الوضع كاستعمال الأسد في الهيكل المخصوص"[406].

وقد صرح العسقلاني بأن الكلام لا يحمل على المجاز إذا أمكن حمله على الحقيقة، بل لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا لضرورة يقول، عند شرحه لحال النبي - صلى ا عليه وسلم - في حادثة الإسراء، والمعراج:" ....وكان مضطجعاً" قوله مضطجعاً زاد في بدء الخلق بين النائم واليقظان، وهو محمول على ابتداء الحال، ثم لما اخرج به إلى باب المسجد فأركبه البراق استمر في يقظته، وأما ما وقع في رواية شريك الآتية في التوحيد في آخر الحديث " فلما استيقظت" فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال، وإلا حمل على أن المراد استيقظت أفقت، أي أنه أفاق مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الملكوت ورجع إلى العالم الدنيوي، وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لو قال صلى ا عليه وسلم إنه كان يقظاً لأخبر بالحق، لأن قلبه في النوم واليقظة سواء، وعينة أيضاً لم يكن النوم تمكن منها، لكنه تحرى صلى ا عليه وسلم الصدق في الإخبار بالواقع فيؤخذ منه أنه لا يعدل عن حقيقة اللفظ للمجاز إلا لضرورة"[407]

---

[406] السكاكي: مفتاح العلوم، ص169.

[407] العسقلاني، فتح الباري، 174/7.

ويذكر عند شرحه لقول النبي ـ صلى ا عليه وسلم ـ " اثبت أحد" أن حمل الكلام على الحقيقة أولى من حمله على المجاز، يقول:

" قوله اثبت وقع في مناقب عمر" فضربه برجله وقال اثبت" بلفظ الأمر مـن الثبات وهو الاستقرار، وأحد منادى ونداؤه وخطابه يحتمل المجـاز وحملـه علـى الحقيقة أولى"[408]

ثانيتها: القرينة:

أبرز العسقلاني في شرحه أهمية القرينة، وقيمتها في الفصل ما بين المجـاز والمشترك اللفظي يقول: "... قوله كانوا إذا راحوا إلى الجمعة راحوا فـي هيئـتهم "استدل البخاري بقوله:(راحوا) على أن ذلك كان بعد الزوال لأنه حقيقة الرواح كما تقدم عند أكثر أهل اللغة، ولا يعارض هذا ما تقدم عن الأزهري أن المراد بالرواح في قوله " من اغتسل يوم الجمعة ثم راح" الذهاب مطلقاً، لأنه إما أن يكون مجازاً أو مشتركاً، وعلى كل من التقديرين، فالقرينة مخصصة، وهي في قوله (من راح من الساعة الأولى) قائمة في إرادة مطلق الذهاب وهي في هذا قائمة في الـذهاب بعـد الزوال) [409].

وقد أشار في بعض المواضع إلى أن القرينة تعين المجاز من الحقيقة يقول:

".....وأطلق الصدقة على النفقة مجازاً والمراد بها الأجر والقرينة الـصارفة عن الحقيقة الإجماع على جواز النفقة على الزوجة الهاشمية التي حرمـت عليهـا الصدقة"[410]

ويقول أيضاً:" .... قال الكرماني ظاهر قوله (أموالكم عليكم حرام) مقابلـة الجمع بالجمع فيفيد التوزيع، فيلزم أن يكون مال كل شخص علـى كـل شـخص حراماً، فيلزم أن يكون ماله عليه حراماً، وليس كذلك وإنما هو مثل قولهم قتل بنـو فلان أنفسهم أي قتل بعضهم بعضاً ففيه مجاز للقرينة الصارفة عن الظاهر"[411]

---

[408] العسقلاني ،فتح الباري، 33/7.

[409] المرجع نفسه، 336/2.

[410] المرجع نفسه، 125/1.

[411] المرجع نفسه، 290/12.

ثالثتها: موقفه من مجيء الحقيقة والمجاز في لفظ واحد:

تحولت قضية الجمع ما بين الحقيقة والمجاز في اللفظ الواحد، إلى جدل ذهني تشعب إلى مجيز ومانع، وكن من الذين أجازوه ابن الأثير(412)، ومن الذين منعوه الزمخشري في كشافه(413)، والعسقلاني يبدو في أماكن كثيرة من شرحه موافقاً لابن الأثير، ومخالفاً لأستاذه الزمخشري فهو يقبل الجمع ما بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد.

يقول: "…. يستفاد من الجمع بين النهي عن أكل الثوم ولحوم الحمر جواز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، لأن أكل الحمر حرام، وأكل الثوم مكروه، وقد جمع بينهما بلفظ النهي فاستعمله في حقيقته وهو التحريم، وفي مجازه وهو الكراهة"(414).

وكرر ذلك أيضاً في قوله:

"…. قوله قال عامر (إن عندي جذعه هي خير من مسنتين آذبحهما قال: هي خير نسيكتيه) كذا فيه بالتثنية، وفيه ضم الحقيقة إلى المجاز بلفظ واحد، فإن النسيكة هي التي أجزأت عنه، وهي الثانية والأولى لم تجز عنه، لكنه أطلق عليها نسيكه لأنه نحرها على أنها نسيكه أو نحرها في وقت النسيكة، وإنما كانت خيرهما لأنها أجزأت عن الأضحية بخلاف الأولى"(415)

ويقول في موطن آخر:

" قوله هذا جبل يحبنا ونحبه قيل هو على الحقيقة، ولا مانع من وقوع مثل ذلك بأن يخلق ا المحبة في بعض الجمادات، وقيل هو على المجاز، والمراد أهل أحد"(416)

---

(412) ابن الاثير، المثل السائر، 131/1.

(413) الزمخشري، جار ا ، الكشاف، 28/3.

(414) العسقلاني، فتح الباري، 410/7.

(415) المرجع نفسه، 19/10.

(416) المرجع نفسه، 73/6.

ويقول:

" قوله وأخبروا بهن من وراءكم بفتح من وهي موصولة، ووراءكم يشمل من جاءوا من عندهم باعتبار المكان ويشمل من يحدث لهم من الأولاد وغيرهم وهذا باعتبار الزمان، ويحتمل إعمالها في المعنين معاً حقيقة ومجازاً"[417].

والقول الحاسم في هذه القضية يحتاج إلى دراسة تفصيلية مستقلة، تجمع شتات أقوال البلاغين والأصوليين، وإن كنت أميل إلى الرأي الذي انتصر له العسقلاني وهو قبول الجمع، انطلاقاً من منظور التطور اللغوي، واحتكاك اللغة مع منعطفات الحياة وتغيراتها، فإطلاق كلمة الدابة على " الدودة والنملة، فإنه لما تعورف في إطلاقه على ذوات الأربع حتى صار حقيقة فيه، فصار إطلاقه على النملة مجازاً، بالإضافة إلى الحقيقة العرفية، وهذا كان حقيقة في أول وضعه على كل ما يدب من الحيوانات، وأما صيرورة المجاز حقيقة فلان المجاز إذا كثر استعماله صار حقيقة عرفية"[418].

1.3.2 المجاز المرسل:

ويعرف بأنه: " ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسه غير التشبيه"[419]

ولم أعثر في كلام العسقلاني بكلمة (مرسل) مطلقة على هذا المجاز المعروف في شرحه، إلا أنه قد أحاط بحقيقته، وذكر كثيراً من علاقاته وأمثلته في ثنايا شرحه، وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً من أنه لا يهتم بضبط المصطلحات البلاغية ضبطاً دقيقاً.

---

[417] العسقلاني، فتح الباري، 224/1.

[418] عيد، رجاء، فلسفة البلاغة، ص231.

[419] القزويني: الإيضاح، ص270.

1.1.3.2 علاقات المجاز المرسل:

تميز المجاز المرسل بعلاقاته العديدة، وقد ذكر العسقلاني كثيراً من هذه العلاقات في شرحه:

1. المجاورة:

أشار العسقلاني إلى العلاقة في مواطن من تفسيره، فذكر عند شرحه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد " قوله وكير الحداد، وفي رواية أبي أسامة كحامل المسك، ونافخ الكير وحقيقة البناء الذي يركب عليه الزق، والزق هو الذي ينفخ فيه فأطلق على الزق اسم الكير مجازاً لمجاورته له"[420].

ويقول في موطن آخر في شرح قول النبي صلى الله عليه وسلم:".... لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه" قوله يغلي منه دماغه... واطلق على الرأس الدماغ من تسمية الشيء بما يجاوره"[421].

وإن كنت أرى - على قلة إطلاعي - أن هذا المثال ينبغي أن يدرج أيضاً في شرحه تحت باب العلاقة الجزئية، حيث صرح بالجزء وهو الدماغ وأريد به الكل وهو الرأس.

ومن أمثلتها أيضا قوله"" ...ورد في صحيح البخاري في باب المحشر يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائف، فعلمت من ذلك أن الذي ذهب إليه الإمام التوربشتي هو الحق الذي لا محيد عنه قلت: ولم أقف في شيء من طرف الحديث الذي أخرجه البخاري على لفظ يوم القيامة لا في صحيحة ولا في غيره، وكذا هو عند مسلم .... ليس فيه يوم القيامة، نعم ثبت لفظ القيامة في حديث أبي ذر المنبه عليه قبل وهو مؤول بأن المراد بذلك أن يوم القيامة يعقب ذلك فيكون من مجاز المجاورة"[422]

---

[420] العسقلاني، فتح الباري، 278/4.

[421] المرجع نفسه7/ 167.

[422] المرجع نفسه، 326/11.

عن تسمية يوم القيامة بالحشر مجازيه، والعسقلاني يدخله ضمن دائرة المجاورة، وإن كنت اعتقد أنها اقرب إلى الملازمة أو إلى الجزئية حيث أطلق الجزء (الحشر) وأريد الكل (القيامة بكل أحداثها).

2. السببية:

والمقصود بها أن يكون اللفظ المذكور سبباً في المعنى المقصود.

أشار العسقلاني إلى هذا العلاقة عند شرحه لجملة من الأحاديث النبوية يقول:" باب لبن الفحل أي الرجل ونسبة اللبن إليه مجازيه لكونه السبب فيه"[423].

إن اللبن مرتبط بالانثى بعد ولادتها، كنسبة اللبن إلى الذكر (الفحل) مجازيه؛ لأنه السبب في ذلك اللبن.

3. المسببية:

والمقصود بها أن يكون اللفظ المذكور المسبب للمعنى المقصود، وقد أشار إليها العسقلاني في شرحه لقول النبي صلى ا عليه وسلم - " من لم يدع قول الزور والعمل به فليس حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ".... مقولة ليس حاجة، مجاز عن عدم القبول فنفى السبب وأراد المسبب"[424]، إن علاقة المسببية في المثال السابق تتجلى في أن قول الزور والعمل به هو السبب في عدم القبول.

ومن أمثلته أيضاً:

" قوله باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر... وظاهر التبويب أن موسى ركب البحر لما توجه في طلب البحر، وفيه نظر لأن الذي ثبت .... إنما ركب البحر في السفينة هو والخضر بعد أن التقيا، فيحمل قوله إلى الخضر على أن فيه حذف، أي إلى مقصد الخضر، لأن موسى لم يركب البحر لحاجة نفسه، وإنما ركبه تبعاً للخضر، ويحتمل أن يكون التقدير ذهاب موسى في ساحل البحر، فيكون فيه حذف، ويمكن أن يقال: مقصود الذهاب إنما حصل بتمام القصة، ومن

---

[423] العسقلاني، فتح الباري، 128/9.

[424] المرجع نفسه، 103/41.

تمامها أنه ركب معه البحر، فأطلق على جميعها ذهاباً مجازاً، إما من إطلاق الكل على البعض، أو من تسمية السبب باسم ما تسبب عنه"[425]

وكانت لمسة رائعة من العسقلاني، لو أنه أبرز في هذا الحديث جدوى المجاز وابلاغيته، وهي المبالغة في أداء المعنى المقصود فحين عبر عن الرحلة ب (الذهاب في البحر) أراد التأكيد على أن الرحلة الحقيقية هي رحلة تلقي العلم، وتحمل مشاقه الجسدية والنفسية.

4. الكلّية:

وتكون إذا ذكر الكل وأريد الجزء، وأشار إليها العسقلاني في المثال السابق الذكر.

" قوله باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر.... ويمكن أن يقال: مقصود الذهاب إنما حصل بتمام القصة، ومن تمامها أنه ركب معه البحر، فأطلق على جميعها ذهاباً مجازاً، إما من إطلاق الكل على البعض أو من تسمية السبب باسم ما تسبب عنه"[426]

وقد لاحظت أنه بين أن المراد ب (ذهاباً) القصة أو الرحلة كلها، لكن قوله بعد ذلك إطلاق الكل على البعض، يبدو أنه وضع في غير موضعه، لأن المذكور في القصة هو الذهاب، وهو الجزء لا الكل، فلو أنه قال: إطلاق الجزء على الكل، لكان الكلام متناسقاً مع السياق، ولعل هذا سهو منه، أو خطأ من النساخ في تقديم كلمة الكل على الجزء والسياق يقتضي عكس ذلك.

ومن أمثلته قول العسقلاني:

"... شكا أهل الكوفة سعداً، وهو بن أبي وقاص ... وفي قوله أهل الكوفة مجاز، وهو من أطلاق الكل على البعض، لأن الذين شكوه بعض أهل الكوفة لاكلهم"[427]

---

[425] العسقلاني، فتح الباري، 153/1.

[426] المرجع نفسه، 153/1.

[427] المرجع نفسه، 205/2.

ومنه أيضاً: فخرج وعليه قباء أي على يده فيكون من إطلاق الكل على البعض"[428]

ومنه أيضاً شرحه لقول سفيان "... نرهنك اللأمة قال سفيان: تعني السلاح، فواعده أن يأتيه".

" قوله يعني السلاح: كذا قال، وقال غيره من أهل اللغة: اللأمة الدرع، فعلى هذا إطلاق السلاح عليها، من إطلاق اسم الكل على البعض"[429]

ومنه أيضاً شرحه لقول مصعب بن سعد" أمرنا أن نضع أيدينا على الركب"

" قوله أن نضع أيدينا أي أكفنا من إطلاق الكل وإرادة الجزء"[430]

وواضح أنه يقصد من إطلاق الكل وإرادة الجزء المجاز المرسل لكنه لم يصرح به.

5. الجزئية:

وتكون بإطلاق الجزء وإرادة الكل، وذكر هذه العلاقة عند شرحه لقوله تعالى: "إلاّ ما دامت عليه قائماً"، يقول:" فعلى هذا يكون التعبير عن المصلي بالقائم من التعبير عن الكلي بالجزء والنكتة فيه أشهر أحوال الصلاة"[431]

ومنه أيضاً: شرحه لقول عامر بن ربيعة" رأيت رسول ا صلى ا عليه وسلم، وهو على الراحلة يسبح " يومئ برأسه قبل أي وجه توجه "قوله يسبح على الناقة: أي يصلي النافلة، والتسبيح حقيقة في قول سبحان ا ، فإذا أطلق على الصلاة، فهو من باب إطلاق اسم البعض على الكل"[432].

ومنه أيضاً: " قوله وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمة المدينة هكذا وقع في رواية معمر، وهو وهم، والصواب على رأس سبع سنين ونصف، وإنما وقع الوهم من كون غزوة الفتح كانت في سنة ثمان، ومن أثناء ربيع الأول إلى أثناء رمضان نصف سنة سواء، فالتحرير أنها سبع سنين ونصف، ولكن توجيه

---

[428] العسقلاني، فتح الباري، 10/ 268.

[429] المرجع نفسه 289/7.

[430] المرجع نفسه 238/2.

[431] المرجع نفسه، 360/2.

[432] المرجع نفسه، 499/2.

رواية معمر بأنه بناء على التأريخ بأول السنة من المحرم فإذا دخل من السنة الثانية شهران أو ثلاثة أطلق عليها سنة مجازاً من تسمية البعض باسم الكل ويقع ذلك في آخر ربيع الأول، ومن ثم إلى رمضان نصف سنة"[433]

6. الملازمة:

ذكر هذه العلاقة عند شرحه لقول النبي صلى الله عليه وسلم " إن لِله ما أخذ وما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى... يقول: " قوله وكل أي الأخذ والإعطاء - أو من الأنفس - أو ما هو أعلم من ذلك، وهي جملة ابتدائية معطوفة على الجملة المؤكدة، ويجوز في كل النصب عطفاً اسم إن، فينسحب التأكيد أيضاً عليه، ومعنى العندية العلم فهو من مجاز الملازمة، والأجل يطلق على الحد الأخير وعلى مجموع العمر"[434]، ومن المعلوم أن إعطاء المال والولد، وأخذهما كل يجري بعلم الله ومن عنده، وكل ملازم للآخر.

ومنه أيضاً ما جاء في قول النبي " لا شخص أغير من الله .....والمراد بالغيرة المنع من الشيء والحماية وهما من لوازم الغيرة، فأطلق على سبيل المجاز كالملازمة"[435] حملت الغيرة في القول السابق على الحماية والمنع من المعاصي وهما من لوازم الغيرة.

7. اعتبار ما كان:

أشار إلى هذه العلاقة في شرح لقوله" وهذا علي ناكح بنت أبي جهل".

" قوله هذا علي ناكح ....أطلقت عليه اسم ناكح مجازاً باعتبار ما كان قصد يفعل"[436]، والعسقلاني يصرح بوجود المجاز ، ويتمثل بإطلاق كلمة ناكح على علي بن أبي طالب رضي الله عنه باعتبار ما كان يريد أن يفعله، وهو الإقدام على الزواج من ابنة أبي جهل، لكنه تراجع عنه إكراماً لابنة رسول الله ، والأولى أن تكون العلاقة باعتبار ما سيكون التالية، ولعلها جاءت بسهو من النساخ.

---

[433] العسقلاني، فتح الباري، 4/4.

[434] المرجع نفسه، 3/ 136.

[435] المرجع نفسه، 13/ 34 ، وانظر 4/ 181.

[436] المرجع نفسه، 7/ 74.

8. اعتبار ما سيكون:

تحدث عن هذه العلاقة، وهو يشرح قول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة، قالت: قدموني "قوله إذا وضعت الجنازة، يحتمل أن يريد بالجنازة نفس الميت بوضع جعله على السرير، ويحتمل أن يريد السرير والمراد وضعها على الكتف، والأول أولى لقوله بعد ذلك، فإن كانت صالحة قالت: فإن المراد به الميت... قال ابن بطال: إنما يقول ذلك الروح، ورده ابن المنير بأنه لا مانع أن يرد الله الروح إلى الجسد في تلك الحال، ليكون ذلك زيادة في بشرى المؤمن، وبؤس الكافر، وكذا قال غيره وزاد: ويكون ذلك مجازاً باعتبار ما يؤول إليه الحال بعد إدخال القبر وسؤال الملكين.."[437].

ومؤدى كلامه أن نسبة الكلام إلى جسد الميت أو روح مجازيه باعتبار ما سيؤول إليه بعد إدخال القبر وسؤال الملكين.

9. الآلية:

وتتمثل بإطلاق اسم الآلة ويراد الأثر الناتج عنها، وذكر هذه العلاقة عند شرحه لقول أبي طلحة عند ما حرم الخمر" قم إلى هذه الجرار فاكسرها، قال أنس: فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى انكسرت".

".... والمهراس بكسر الميم وسكون الهاء، وآخره مهملة إناء يتخذ من صخر وينقر، وقد يكون كبيراً كالحوض، وقد يكون صغيراً، بحيث يتأتى الكسر به، وكأنه لم يُحضر ما يكسر به غيره، أو كسر بآلة المهراس التي يدق بها فيه، كالهاون فأطلق اسمه عليها مجازاً"[438].

10. المحلية:

وهي تسمية الحال باسم محله، ووقعت الإشارة إلى هذه العلاقة في قول عتبان بن مالك، للنبي صلى الله عليه وسلم: " يا رسول الله قد أنكرت بصري، وأنا أصلي لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم، ولم استطع أن آتي

---

[437] العسقلاني، فتح الباري، 3/ 161.

[438] المرجع نفسه، 10/ 33.

مسجدهم فأصلي بهم" يقول: "... قوله سال الوادي" أي سال الماء في الوادي، وهـو من إطلاق المحل على الحال"[439].

ومنه أيضاً: " قوله في حق الكعبة" ولا يستدبرها" وزاد (ببـول أو بغـائط)، والغائط الثاني غير الأول، أطلق على الخارج من الدبر مجازاً، من إطـلاق اسـم المحل على الحال، كراهية لذكره بصريح اسمه"[440]

11. الحالية:

وجاءت الإشارة إليها مرة واحد في الشرح، يقول: " قولـه بـاب مـن بـدأ بالحلاب أو الطيب عند الغسل"... بالحلاب أو الطيب يدل علـى أن الطيـب قـسيم الحلاب، فيحتمل أنه من غير جنسه، وجميع من اعترض عليه حمله على أنه مـن جنسه، فلذاك أشكل عليهم، والمراد بالحلاب على هذا الماء في الحلاب فأطلق على الحال اسم المحل مجازاً"[441]

12. التغليب:

وهو إعطاء الشيء حكم غيره، ومن أمثلته عند العـسقلاني: شـرحه لقولـه تعالى" يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان"، المراد بالبحرين هنا بحـر الـسماء والأرض يلتقيان كل عام... وإنما يخرج اللؤلؤ من أصداف بحر الأرض لا من قطر السماء، قلت وفي هذا دفع لمن جزم بأن المراد بهما البحر الحلو، والبحر الملح وجعل قوله" منهما" من مجاز التغليب"[442]

من المعلوم أن اللؤلؤ والمرجان متوافران في بحر الأرض ونسبتهما إلى بحر السماء مجازيه.

ومن أمثلته:

" قوله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، يجوز تـشديد فـرق وتخفيفـه، والمراد بالفرق من أقر بالصلاة، وأنكر الزكاة جاحداً أو مانعاً مع الاعتراف، وإنمـا

---

[439] العسقلاني، فتح الباري، 1/ 462.

[440] المرجع نفسه 1/ 224.

[441] المرجع نفسه، 1/ 331.

[442] المرجع نفسه، 274/11.

أطلق أول القصة الكفر ليشتمل الصنفين، فهو في حق من جحد حقيقة، وفي حق الآخرين مجازاً تغليبياً"[443].

ويقول في موطن آخر:

" قوله توضأ مثل وضوئي هذا... تطلق على المثلية مجازاً، لأن مثل وإن كانت تقتضي المساواة ظاهراً لكنها تطلق على الغالب"[444].

والتغليب من العلاقات المختلف عليها فمنهم من يدخله إلى المجاز المرسل لعلاقة المجاورة أو من باب عموم المجاز، ومنهم من عده من المحسنات البديعية كالمشاكلة، وذلك لأن المجاز نقل اللفظ من معنى إلى آخر، والتغليب نقل المعنى من لباس إلى آخر لا اللفظ[445] والعسقلاني يبدو من خلال استخدامه لكلمة مجاز أنه يدخلها ضمن قائمة، وعلاقات المجاز المرسل.

13. التخصيص:

ذكر هذه العلاقة في شرحه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها "يقول"... قال ابن المنير: المراد بالحسد الغبطة، وليس المراد بالنفي حقيقته وإلا لزم الخلف، لأن الناس حسدوا في غير هاتين الخصلتين، وغبطوا من فيه سواهما فليس هو خبراً، وإنما المراد به الحكم، ومعناه حصر المرتبة العليا من الغبطة في هاتين الخصلتين، فكأنه قال هما آكد القربات التي يغبط بها، وليس المراد نفي أصل الغبطة مما سواهما، فيكون من مجاز التخصيص أي لا غبطة كاملة التأكيد لتأكيد أجر متعلقها إلا الغيطة بهاتين الخصلتين"[446].

---

[443] العسقلاني، فتح الباري، 12/ 237 ـ 238.

[444] المرجع نفسه، 1/ 236.

[445] الصعيدي، عبدالمتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المطبعة النموذجية، القاهرة، ط1، د.ت، 191/3.

[446] العسقلاني، فتح الباري، 13/ 104.

14. الاختصار:

ذكر هذه العلاقة في شرحه لقوله تعالى" وإلى مدين أخاهم شعيب"، يقـول: " مدين لا ينصرف لأنه اسم بلد مؤنث، ومجاز مجاز المختصر الذي فيه ضمير، أي إلى أهل مدين، ومثله واسأل القرية أي أهل القرية، والعير أي أهل تلك العير"(447).

وقد أشار إلى هذه العلاقة أيضاً عند شرحه لقوله تعالى:" والملائكة يـدخلون عليهم من كل باب سلام".

" قال مجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير، تقديره سـلام علـيكم"(448)، ويحمد للعسقلاني هذا الإلمام الكبير بعلاقات المجاز المرسل المتفق والمختلف عليها، (التغليب والتخصيص) في شرحه.

2.1.3.2 موقفه بين المجاز المرسل والاستعارة:

أشرنا سابقاً إلى أن المجاز اللغوي يقسم إلى قسمين باعتبار العلاقـة، فـإن كانت العلاقة مشابهة كان المجاز استعارة، وإن كانت غير المشابهة كـان المجـاز مرسلاً.

وعليه فاللفظ الواحد يمكن أن يكون مجازاً مرسلاً، ويمكن أن يكون استعارة على حسب العلاقة، وهذا ما أكده استخدام العسقلاني لمصطلح مجاز التشبيه مقابـل الاستعارة. (449)

لكنني مع ذلك لاحظت أنه أحياناً يذكر المجاز في بعض الأحاديث على أنـه استعارة، ثم يوجهه توجيهاً يشعر أنه مجاز مرسل، لا استعارة.

فقد جعل في قوله" الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري"، جعل إطلاق الكبريـاء على الرداء، والعظمة على الإزار وهو من مجاز الملازمة، من قبل الاستعارة:

---

(447) العسقلاني، فتح الباري، 8/ 302.

(448) المرجع نفسه، 8/ 318.

(449) المرجع نفسه، 318/8.

يقول: " قوله الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، اسـتعارة كنـي بهـا عـن العظمة... وليست هي الثياب المحسوسة لكن المناسبة أن الرداء والإزار لمـا كانـا متلازمين للمخاطب من العرب عبر عن العظمة والكبرياء بهما"[450].

فعندما نتأمل هذه العلاقة (الملازمة) نجدها بعيدة عن المشابهة، التـي هـي عماد الاستعارة وأساسها، وعليه نرى أن إطلاق الكبرياء والعظمة مجازاً أمراً سهلاً علاقته الملازمة.

والحق يقتضي أن نشير إلى أنه يتساهل في إطلاق الاستعارة، فهو كما أطلقها على المجاز المرسل، يجمع ما بينهما في موطن واحد، يقول في قول النبي صـلى ا عليه وسلم: " يهرم أين أدم ويشب معه اثنان.." هذا مجاز واستعارة ومعنـاه: أن قلب الشيخ كامل الحب للمال متحكم في ذلك كإحكام قوة الشاب في شبابه"[451].

ويقول في موطن آخر:

" لا أحلف على يمين: أي محلوف يمين، فأطلق عليه لفظ يمـين للملابـسة والمراد ما شأنه أن يكون محلوفاً عليه فهو من مجاز الاستعارة"[452].

ويطلق مصطلح المجاز على ما حقه أن يكون استعارة، يقول في شرحه لقول النبي عليه السلام: " يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثـلاث عقـد، يضرب على مكان كل عقده، عليك ليل طويل فارقد " هو على المجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم بفعل الساحر بالمسحور، فلما كان الساحر يمنع بعقده ذلك يـصرف من يحاول عقده، كان هذا مثله من الشيطان للنائم"[453].

وواضح أساس المشابهة ما بين الطرفين، ومع ذلك يعبر بمصطلح المجاز لا الاستعارة.

وهو لا يكتفي بهذا بل يطلقها على ما يبدو أنه كناية يقول عند شرحه لقـول عائشة رضي ا عنها في حادثة الإفك" ، ولا اكتحل بنـوم..."يقـول: "قولهـا ولا

---

(450) العسقلاني، فتح الباري، 13